دُرُوسٌ مِنَ السِّيرَةِ

جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالزلفي

هاتف: ٠١٦ ٤٢٣٤٤٦٦ ـ فاكس: ٠١٦ ٤٢٣٤٤٧٧

263

جمعية الدعوة بالزلفي

دُرُوسٌ مِنَ السِّيرَةِ

جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات في الزلفي
Tel: 966 164234466 - Fax: 966 164234477

دروس من السيرة

إعداد: جمعية الدعوة والإرشاد وتوعية الجاليات بالزلفي

الطبعة الثالثة : ١٤٤٢/٦ هـ

ح شعبة توعية الجاليات بالزلفي ، ١٤٣٠
فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

شعبة توعية الجاليات بالزلفي
دروس من السيرة - عربي / شعبة توعية الجاليات
بالزلفي - الزلفي ، ١٤٣٠ هـ
٢٠٤ ص ؛ ٢٤/١٧ سم
ردمك: ٩-١٩-٨٠١٣-٦٠٣-٩٧٨

١- السيرة النبوية أ. العنوان
ديوي ٢٣٩ ١٤٣٠/٥٥٤٠

رقم الإيداع: ١٤٣٠/٥٥٤٠
ردمك: ٩-١٩-٨٠١٣-٦٠٣-٩٧٨

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أنَّ لا إله الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، أما بعد:

فهذا الكتاب يستعرض دروسًا من سيرة نبينا الكريم محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ تتمثل في شخصيته، وأخلاقه، وآدابه، وتعاملاته، وسُنَنِه بأسلوبٍ مُيسر يتضمن الدروس والعبر، وقد جاءت في موضوعات متعددة لتكون أيسر للقراءة والمدارسة والفهم.

وعليه فيمكن لإمام المسجد قراءتها على المصلين بعد صلاة العصر، أو العشاء مثلًا، وكذلك ربُّ الأسرة تدارسها مع أفراد أسرته، أو أن يجعلها الشيخ متنًّا يُدرسه لطلابه يشرح من خلالها أحداث السيرة وعِظاتها وعِبَرِهَا، فيتوسع ويسهب مع طلابه في الشرح والتحليل، واستخراج الدروس، والعضات والعبر منها، أو تكون سِلسلة من الكلمات تلقى في المناشط المدرسية، أو الإفادة منها في اللقاءات والاجتماعات الأسرية، إلى غير ذلك من الأساليب التي يمكن استثمار هذا الكتاب فيها.

فمن أراد معرفة سيرة أشرف الخلق، وأزكى البشر، ترى كيف عاش حياته، وبلَّغ دعوة ربه، كيف عامله قومه، وكيف تعامل معهم، كيف كانت علاقته بربه، وكيف كانت علاقته بالناس فليقرأ هذا الكتاب .

نسأل الله أن ينفع بهذا العمل، ويجعله خالصًا لوجهه، ويكتب له القبول، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله أجمعين .

٣ / ١٤٣٧

العرب قبل البعثة

كانتِ الوثنية وعبادة الأصنام هى الديانة السائدة لدى العرب قبل بعثة النبى ﷺ وظهور الإسلام، ولذلك سميت فترتهم بالجاهلية. وكان من أشهر أصنامهم: اللات، والعزى، ومناة، وهُبل، كما وُجد بين العرب من اعتنق اليهودية، أو النصرانية، أو المجوسية، ووجد بينهم أفرادٌ قِلَّةٌ ظَلوا متمسكين بالحنيفية، ملة إبراهيم عليه السلام.

أما الحياة الاقتصادية، فكانت البادية تعتمد اعتمادًا كليًّا على الثروة الحيوانية المعتمدة على الرعي، وكان عمادُ الحياة الاقتصاديةِ لدى الحاضرة الزراعة والتجارة، وقُبيل ظهور الإسلام كانت مكة أعظم بلد تجاري في جزيرة العرب، وقد كان اقتصادها يقوم على التجارة، مع وجود بعض الصناعات المتنوعة الخفيفة .

أما من الناحية العمرانية، فقد كان هناك حضارة عمرانية في أماكن متعددة من الجزيرة العربية، كالمدينة والطائف إضافة إلى مكة التي تُعَدُّ المركز الحضاري الرئيسَ في الجزيرة. أما من الناحية الاجتماعية، فقد كان الظلم منتشرًا، والحقوق مهضومة، تُوْأَدُ البنات، وتنتهك الحرمات، ويأكل القوي حق الضعيف، يعددون الزوجات دون حدٍّ أو ضابط، والزنا منتشر، والحروب بين القبائل تقع لأتفه الأسباب، حتى بين أبناء القبيلة الواحدة.

مكانة قريش

كان لمكة منزلة خاصة في نفوس القبائل العربية، لوجود الكعبة فيها، ولكونها مركز العبادة، حيث يحج الناس إليها من أنحاء الجزيرة العربية، وقد أثَّرَ ذلك في قبيلة قريش، فجلب لها التقدير والاحترام، وأكسبها مكانة رفيعة بين العرب، إذ كانت تتمتع بمكانةٍ متميزةٍ ومهابةٍ عظيمةٍ في نفوس الناس، أسهم في ذلك عوامل عدة كان من أبرزها وجود بيت الله الحرام .

وتعدُّ قريش القبيلة الرئيسة في مكة، فهي التي كانت تمتلك السلطة والسيادة، وتتولى سِدانة البيت الحرام، والإشراف عليه، وعلى خدمة الحجاج القادمين إليه . وكان قُصيُّ بن كلاب هو الذي أخرج خزاعة وبني بكر من مكة، وجمع قريشًا، ومكَّن لها في مكة، وابنتى لها دار الندوة، وكانت إليه السقاية والرفادة، والحجابة، وقد تسلم أبناؤه زمام الأمر من بعده . وقد كانت عشيرة محمد ـ ﷺ ـ عند ظهور الإسلام تتبوأ مكانة خاصة بين عشائر قريش لتوليها شؤون البيت، وخدمة الحجيج.

وكان يوجد قبل ظهور الإسلام، وفتح مكة ثلاث مئة وستون صنمًا حول الكعبة، جلب بعضها عمرو بن لُحَيٍّ الخِزَاعِي - أول من بدل دين إبراهيم الخليل عليه السلام -.

ابن الذبيحين

لما أراد عَبدُالمُطلب جدُّ النبيِّ ـ ﷺ ـ حفر بئر زمزم حين جاءه الأمر بذلك في الرؤيا التي رآها، نازعته قريش، واشتد عليه أذاهم، حيث أرادوا أن يشاركوه شرف حفرها والقيام بها، ولم يكن له من الأبناء من يسانده، ويتقوى به على قريش سوى ابنه الحارث ؛ فَنَذَر عَبدُالمطلب لَئِنْ رَزقَهُ اللهُ عَشرةً مِنَ البنين الذكور ليذبحن واحدًا منهم تقربًا للآلهة. وتم له ما أراد، فرُزق عشرة ذكور، كان أحدُهم عبدالله والد النبي ﷺ، فلما أراد عبدالمطلب الإيفاء بنذره، استخدم القرعة بين أبنائه، فخرجت على عبدالله، ولما أراد ذبحه قام الناس في وجهه ليمنعوه حتى لا يكون ذلك في الناس سُنَّة، ثم اتفقوا على القرعة بين عبدالله وعشرة من الإبل تكون له فداءً، فلما عُمِلَت القرعة، خرجت على عبدالله، فضاعفوا عددَ الإبل، فخرجت عليه مرة أخرى، فأخذوا يزيدون في عدد الإبل، وكانت القرعة تخرج على عبدالله دائمًا، حتى بلغ عدد الإبل مئة، فخرجت القرعة على الإبل، فذبحها عبدالمطلب وافتدى ابنه عبدالله بها.

وقد حصل هذا النذر قبل ولادة النبي ـ ﷺ ـ بخمس سنين تقريبًا.

ولادة النبي ﷺ

كانَ عبدُالله أحبَّ أبناءِ عبدالمطلب إلى قلبه، خصوصًا بعد الفداء، وحينما كَبُرَ عَبدُالله، اختار له والده فتاةً من بني زُهرة من قريش، اسمها آمنة بنت وهب، فزوجهَ إيَّاها، وحملت آمنة وخرج عبدالله في مهمة تجارية، وهناك عند أخواله من بني النجار أصابه المرض ؛ وتوفي في يثرب ودفن هناك.

تمت أشهر الحمل، وولد ـ ﷺ ـ يوم الاثنين، لكن ليس هناك تحديد مؤكد لليوم والشهر الَّذيْنِ وُلِدَ فيها ﷺ، فقيل: إنه ولد في التاسع من ربيع الأول، وقيل: في الثاني عشر، وقيل: في رمضان، وقيل: غير ذلك، وكان ذلك في عام ٥٧١ للميلاد، وهو العام الذي يسمى عام الفيل.

لما وُلِد النبي ـ ﷺ ـ أرضعته ثُوَيْبَةَ مولاةُ عمِّهِ أبي لَهَب، وكانت قد أرضعت قبلهُ عمهُ حَمزة بنَ عبدِالمُطلب ؛ ولذلك فإن حمزةَ ـ رضي الله عنه ـ يكون أخًا للنبي ـ ﷺ ـ من الرضاعة .

وقد كان من عادة العرب أنهم يلتمسون لأولادهم المراضع من أهل البادية ؛ حيث تتوافر لهم أسبابُ النشأة البدنية السليمة، وسلامة اللسان، وصفاء الذهن ؛ فانتقل ـ ﷺ ـ إلى ديار بني سعد، حيث تَولَّت حليمة السعدية إرضاعه ورعايته، و مكث عندها قرابة أربع سنين.

النسب الشريف

وُلِدَ النبي - ﷺ - في أشرف بيت من بيوت العرب، فهو من بني هاشم أشرف فروع قريش، وقريشٌ أشرف قبيلة في العرب، قال ﷺ: « **إن الله خلق الخلق فجعلني من خيرهم، ... ثم تخير القبائل، فجعلني من خير قبيلة، ثم تخير البيوت، فجعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم نفسًا، وخيرهم بيتًا** ».

نشأ - ﷺ - يتيمًا في كفالة جده، ثم عمه أبي طالب . وأمضى طفولته الأولى في الصحراء في بني سعد، فنشأ قوي البُنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جريء الجنان، يُحسنُ رُكوبَ الخيل .

وقد ظهرت عليه علامات النجابة ورجحان العقل من صغره، رعى الغنم في شبابه، ولم يشارك أقرانه من شباب مكة في لهوهم ولا عبثهم، ولم يشارك قومه في عبادة الأوثان، ولم يأكل شيئًا مما ذبح لها، ولم يشرب خمرًا، ولا لعب قمارًا، ولا عُرف عنه فُحشٌ في القول، أو قبحٌ في الكلام . اشتهر بين قومه بالصدق والأمانة، وحسن الخلق وحُسنِ المُعاملة، والوفاء بالوعد، واستقامة السيرة، سافر مرتين إلى خارجِ مكة، الأولى مع عمه حين كان عمره اثنتي عشرة سنة، والثانية حين كان عمره خمسًا وعشرين سنة، متاجرًا لخديجة بمالها، وكانت كلتا الرحلتين إلى مدينة (بُصْرى) في الشام.

قصة الفيل

حين رأى أبرهةُ الحبشي نائبُ النَّجاشي على اليمن العربَ يحجُّون الكعبةَ في مكة ويعظمونها، ويَأتون إليها من أماكن بعيدة ؛ بنى كنيسةً كبيرة في صنعاء ؛ ليصرف الحجاج العرب إليها. وسمع بذلك رجل من بني كنانة (إحدى قبائل العرب) فدخلها ليلًا ولطخ جدرانها بالعَذِرَة، ولما علم أبرهة بذلك ثار وغضب وجهز جيشًا ضخمًا قِوامه ستونَ ألف رجل معهم تسعة فيلة وسار بهم إلى مكة ليهدم الكعبة، واختار لنفسه فيلًا من أكبر الفيلة، ولما بلغ قريبًا من مكة هيأ جيشه واستعد لدخول مكة لكن الفيل بَرَكَ ولم يتقدم، وكانوا كُلَّما وجهوه إلى جهة غير الكعبة نهض يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة بَرَك، فبينا هم كذلك، أرسل الله عليهم طيرًا ترميهم بحجارة صغيرة أُوْقِد عليها في نار جهنم، وكان كل طائر يحمل ثلاثة أحجار، حجرًا في منقاره، وحجرين في رجليه أمثال الحُمُّص، لا تصيب منهم أحدًا إلا أخذت أعضاؤه تتقطع وتتفتَّت، حتى يهلك. فخرجوا هاربين يتساقطون في الطريق، أما أبرهة فبعث الله عليه داء تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء إلا وقد بلغ به الأذى كل مبلغ، حيث مات هناك. وكان رجال قريش قد تفرقوا في الشعاب، واحتموا بالجبال ؛ خوفًا من أبرهة فلما نزل بالجيش ما نزل ؛ رجعوا إلى بيوتهم . وكانت هذه الحادثة قبل مولد النبي ـ ﷺ ـ بخمسين يومًا.

حادثة شق الصدر

في ذاتِ يومٍ، وحينما قارب محمدٌ ـ ﷺ ـ الرابعة من عمره، وبينما كان يلهو مع أخيه من الرضاع (ابن حليمة السعدية) بعيدًا عن الخيام، في ديار بني سعد، جاء ابن حليمة وهو يجري وعلى وجهه سِمات الفزع، وطلب من أمه أن تدرك أخاه القرشي، فسألته عن الأمر، فقال: " لقد رأيت رجلين في ثياب بيض، يأخذانه من بيننا، ويضجعانه ثم يشقان صدره " وقبل أن يكمل روايته، كانت حليمة تركض نحو محمد ـ ﷺ ـ فرأته واقفًا مكانه لا يتحرك، وقد علت الصُّفْرَةُ وجهه، وتغيَّر لونه، فسألته في لهفة عما أصابه، فأخبرها أنه بخير، وحكى لها أنَّ رجلين في ثياب بيض أخذاه فشقا صدره، ثم أخرجا قلبه فاستخلصا منه علقة سوداء وطرحاها، ثم غسلا القلب بماء بارد، ثم أعاداه إلى الجوف، ثم مسحا على الصدر، وغادرا المكان واختفيا. عادت حليمة بمحمد إلى الخباء، ومع إطلالة فجر اليوم التالي، كانت حليمة تحمل محمدًا إلى أمه في مكة. وتعجبت آمنة من عودة حليمة في غير أوانها، بالرغم من حرصها على الطفل، وسألتها عن السبب، فحدثتها حليمة عن تفاصيل حادثة شق الصدر.

وفاةُ أُمِّهِ ﷺ

خرجت آمنةُ بطفلها اليتيم إلى المدينة لزيارة أخواله من بني النجار، ومكثت هناك أيامًا، وفي طريق العودة إلى مكة، وافاها الأجل في مكان يسمى الأبواء، وهناك دُفِنَت، وودَّعَ مُحمدٌ ـ ﷺ ـ أمه وهو في السادسة من عمره، فرعاه جَدِّه عبد المطلب وكفله وعوضه الكثير، وعطف عليه. وفي الثامنة من عمره ـ ﷺ ـ توفي جدُّه عبدالمطلب، فكفَله عمُّه أبو طالب على كثرة عياله، وقلَّةِ ماله، وعامَلَهُ عمه، وكذلك زوجته كأبنائهما، ولقد تعلق محمد ـ ﷺ ـ بعمِّه كثيرًا ؛ لما كان يجده منه من رعاية وحب .

ولم يمنعه صغر سنه من الاعتماد على نفسه في شؤون حياته، وكسب معاشه، ومساعدة عمه على متطلبات الحياة، فَعَمِلَ راعيًا لِبعضِ القُرشيين على أغنامهم مُقابلَ مَبلغ يسير من المال، ففي صحيح البخاري أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ((**ما بَعَثَ اللهُ نبيًا إلا رعى الغنم**)) قالوا : " وأنت يا رسول الله؟ " قال: ((**وأنا، كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**)).

ومن هنا أَلِفَ حياة العمل والكفاح منذ طفولته، واعتاد أن يعتني بمن حوله، ويبذل العون للآخرين، كما تربى على فضائل الأخلاق، ونشأ على الصدق والأمانة ؛ حتى كانتا لقبًا يُعرف به، فإذا قيل حضر الأمين، أو حضر الصادق، عُرف أنه محمد ﷺ.

حِلفُ الفُضول

اشترك النبي ـ ﷺ ـ في حلف الفضول، وكان عمره حينها عشرين سنة . وكان سببُ هذا الحلف أنَّ رجلًا من زُبيد، من اليمن، قَدِم مكة ببضاعة، فاشتراها منه العاص بن وائل وكان ذا قدر ومكانة في مكة، فمنعه حقَّه، ولم يجد الزبيدي من ينصفه ويأخذ له حقه ؛ فصعد جبل أبي قبيس ونادى بمظلمته . فقام الزبير بن عبدالمطلب وقال: " ما لهذا مَتْرك " ثم اجتمعت هاشم وزهرة وتيم بن مرة في دار ابن جدعان فتحالفوا وتعاهدوا بالله ليكونُنَّ يدًا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يُؤَدَّى إليه حقه، وتعاهدوا على ألَّا يجدوا بمكة مظلومًا من أهلها أو من غيرهم ممن دخلها من سائر الناس إلا قاموا معه، وكانوا على من ظلمه حتى تُرد عليه مظلمته، ثم مشوا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حقَّ الزبيدي فدفعوه إليه .

وهذا الحلفُ أكرَم وأشرف حِلف سُمع به في العرب، قال عنه الرسول ﷺ: ((**لقد شَهِدتُ في دار عبد الله بن جدعان حِلفاً ما أُحـبُّ أنَّ لي به حُمُر النعم، ولو أدعى به في الإسلام لأجبت**)).

الزواج من خديجة رضي الله عنها

لما بلغ رسول الله ـ ﷺ ـ خمسًا وعشرين سنة تزوج خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ، وكانت خديجة بنت خويلد امرأةً تاجرةً، ذات شرفٍ، ومالٍ، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم.

وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج عليها غيرها حتى ماتت رضي الله عنها ، ولخديجة خصائص لا يشاركها فيها أحدٌ من أمهات المؤمنين، ولها خِصِّيْصَةٌ واحدةٌ لا يشاركها فيها أحدٌ من نساء العالمين، فمن الخصائص التي لم يُشاركها فيها أحدٌ من أمهات المؤمنين أن النبي ـ ﷺ ـ لم يتزوج عليها وهي حيَّة، فلم يجمع بينها وبين أحدٍ من النساء، والثانية أن الله رزقه منها الولد، ولم يرزقه بولدٍ من غيرها إلا ما كان من جاريته مارية أم إبراهيم .

أما الخصِّيصة التي تفردت بها عن نساء العالمين أجمعين : أنَّ الله ـ جلَّ وعلا ـ بلغها سلامه مع جبريل عليه السلام، وهذه خصيصة لا يُعلم نقلًا أن أحدًا من نساء العالمين نالها، رضي الله تعالى عنها وأرضاها، وقد ثبت عنه ـ ﷺ ـ كما في الصحيحين ـ أنه قال: ((**إنِّي رُزقتُ حبها**))، وأما أولاده منها، فكان لها من البنات: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، ومن البنين القاسم وعبدالله وقد ماتا في صغرهما.

بناء الكعبة

حينما كان عُمْرُ النبي ـ ﷺ ـ خمسًا وثلاثين سنة أرادت قريش تجديد بناء الكعبة، بسبب تصدع جُدرانها ؛ لأن سيلًا عظيمًا انحدر إلى البيت الحرام، فأوشكتِ الكعبةُ منه على الانهيار، فاضْطُرت قريش إلى تجديد بنائها حرصًا على مكانتها، واتفقوا على ألا يُدخِلوا في بنائها إلا نفقة طيبة .

وأشترك أشراف الناس والسادة في البناء، فلما بلغوا موضع الحجر الأسود اختلفوا فيمن يكون له شرف وضعه في مكانه، واستمر النزاع أربع ليال أو خمسًا، واشتد الخلاف بينهم حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس، ثم اتفقوا على أن يُحكِّموا بينهم أول من يدخل عليهم من باب المسجد، وشاء الله أن يكون أول من يدخل رسول الله ﷺ، فلما رأوه هتفوا : " هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد " فلما جاء إليهم، أخبروه الخبر، فطلب رداءً فوضع الحجر الأسود وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه، أخذه ووضعه بيده في مكانه، وهذا حلٌّ حكيم رضيَ به القوم.

وقَصُرَت بقريش النفقة الطيبة فأخرجوا من الجهة الشمالية نحوًا من ستة أذرع، وهي التي تسمى بالحِجر والحطيم، وصارت الكعبة بعد انتهائها ذات شكل مربع تقريبًا، ورفعوا بابها من الأرض ؛ لئلا يدخلها إلا من أرادوا، ولما بلغ البناء خمسة عشر ذِراعًا سقفوه على ستة أَعْمُد.

النُّبوة

مع اقتراب سِنه الشريف من الأربعين، كان محمدٌ ـ ﷺ ـ يُكثر من الوِحْدة والخلوة في غار حِراء، الموجود قريبًا من مكة من جهة الشرق، يقضي فيه أيامًا ولياليَ متتابعة يَعْبُد الله. وفي يوم الاثنين من رمضان، وبينما هو في الغار وقد بلغ عمره أربعين عامًا، أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ فقال له: اقرأ. قال: ما أنا بقارئ (أي: لا أعرف القراءة)، فعاوده جبريل للمرة الثانية والثالثة، وفي الثالثة قال له: ﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥ ﴾ [العلق]، ثم انصرف عنه، فعاد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى بيته يرتجف فؤاده، فقال: ((**زملوني، زملوني**)) ثم أخبر زوجته خديجة بما حصل، ثم قال: ((**لقد خشيت على نفسي**))، فقالت خديجة رضي الله عنها : " كلا، والله لا يخزيك الله أبدًا ؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتُكسب المعدوم، وتَقْري الضيف، وتُعين على نوائب الحق[١] " .

وبعد فترة قصيرة، عاد النبي ـ ﷺ ـ إلى الغار ليواصل تعبده، فلما انتهى من عبادته، نزل ليعود إلى مكة، فلما صار في بطن الوادي، جاءه جبريل جالسًا على كرسي بين السماء والأرض، وأوحى إليه : ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ ﴾، وفي هذه الآيات أمَرَ الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه ـ ﷺ ـ بالدعوة إلى الإسلام.

---

١ – تحمل الكل : أي تساعد الذي لا يستطيع أن يستقل بأمره، وتكسب المعدوم: أي تعطي الذي ليس عنده شيء، وتقري الضيف : أي تكرم الضيف، وتُعين على نوائب الحق: أي على مصائب الدنيا.

بَدء الدَّعْوَة

لما نزل قوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ قام رسوله الله ـ ﷺ ـ يدعو الناس، وبدأ بأهل بيته، فآمنت خديجة رضي الله عنها . ثم أسلم علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وكان عمره حينها عشر سنين، وكان النبي ـ ﷺ ـ قد استخلصه عنده يربيه، ويُنفق عليه، وفاءً منه لعمه الذي كفله ورعاه بعد أمه وجده .

وأسلم زيد بن حارثة مولى النبي ﷺ، ودعا النبيُّ ـ ﷺ ـ صديقه أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فأسلم ولم يتردد، وبعد إسلامه أخذ يدعو من يثق بهم، فاستجاب له الكثير من الناس، وأسلم عثمان بن عفَّان، و طلحة بن عبيد الله، و الزبير بن العوّام، و سعد بن أبي وقاص، و عبدالرحمن بن عوف، و عثمان بن مظعون، و أبو سلمة بن عبد الأسد، و أبو عبيدة بن الجراح، و الأرقم بن أبي الأرقم، وخبَّابُ بن الأرت، و عمار بن ياسر وأمُّه، رضي الله عنهم أجمعين.

ويَروي عبدُالله بنُ مسعودٍ ـ رضي الله عنه ـ قصة إسلامه، فيقول: " كنت غلامًا يافعًا أرعى غنمًا لعُقبة بن أبي مُعيط، فاتى عليَّ رسول الله ـ ﷺ ـ وأبو بكر، فقالا : ((**عندك يا غلام لبن تسقينا**)) قلت : "إني مؤتمن ولست بساقيكما " فقال ﷺ: ((**هل عندك من جذعة لم يَنزُّ عليها الفحل بعد؟**)) قلت : " نعم " فاتيتُهُما بها، فاعتقلها أبو بكر، وأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ الضَّرع، ودعا ؛ فحفل الضَّرع باللبن، وأتاه أبو بكر بصخرة متقعرة، فحلب فيها، ثم شربَا، ثم سَقَيَاني، ثم قال للضرع: ((**اُقْلُص**)) فقلص، فلما كان بعد أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فقلت: " علمني من هذا القول الطيب ، وأسلمت".

طُرُق الوحي

للوحي طرق وأساليب مُتنوعة، منها الرؤيا الصادقة، فرؤيا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هي من قبيل الوحي.

ومنها أن يأتي المَلَكُ إلى النبي ـ ﷺ ـ متمثلًا بصورةِ رجل، فيخاطبه حتى يأخذ عنه ما يقوله له، ويوحي به إليه، وفي هذه الحالة، قد يراه الناس أيضًا، كما حصل مرارًا لنبينا ﷺ.

ومنها أن يأتي الملك في صورتهِ الأصلية التي خلقه الله ـ تعالى ـ عليها، ويراه النبيُ ـ ﷺ ـ كذلك، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحِيْه، ولم يحصل هذا لنبينا ـ ﷺ ـ إلا قليلا.

ومنها أن يُلقي المَلَكُ في رَوْع (أي: ذهن) النبي ـ ﷺ ـ وقلبه ما يوحي به الله إليه، من غير أن يرى له صورة، وقد حصلت هذه الطريقة أيضًا لنبينا ﷺ.

وأحيانا كان يأتي المَلَكُ مُخاطبًا النبي ـ ﷺ ـ بصوت وكلام مثل صَلْصَلَةِ الجرس، وهذه الحالة من أشد أحوال الوحي على النبي ﷺ، فقد كان نبينا ـ ﷺ ـ عندما يأتيه الوحي بهذه الطريقة يعرق حتى يسيل العرق من جبينه في اليوم الشديد البرد، وإذا أتاه وهو راكبٌ تبرُكُ به ناقته.

وقد يكون الوحيُ بكلام الله ـ تعالى ـ للنبي ـ ﷺ ـ بدون وساطة المَلَكِ، بل من وراء حجاب، كما حصل ليلة الإسراء.

الدعوة السرية

اجتهد النبي ـ ﷺ ـ في دعوته السرية، بدعوة أهله وأقرب الناس إليه، ودعوة كل من يثق به، ويتوسم فيه الخير من معارفه وأصدقائه، كما شارك أصحابُه في دعوة من تطمئن إليه نفوسهم من أقاربهم وأصدقائهم، وكان النبي ـ ﷺ ـ يجتمع بأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم يعلمهم أصول الإيمان، وحقيقة التوحيد، ويربيهم على مكارم الأخلاق، وفضائل الأعمال، ويعظهم ويصف لهم الجنة والنار، وقد كانوا إذا أرادوا الصلاة والعبادة ذهبوا يستخفون من المشركين في الشعاب خارج مكة . ولم تكن الصلوات الخمس قد فرضت بعد، فقد كانت الصلاة مرتين في اليوم، صلاةٌ في أول النهار، وصلاةٌ في آخره .

وبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من الصحابة في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليهم نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد يومئذ رجلًا من المشركين بلحي بعير فشجه فكان، أولُ دمٍ أُهْرِيقَ في الإسلام.

ولقد كان من الحكمة في بدء أمر الدعوة، أن يجتمع رسول الله ـ ﷺ ـ بأصحابه سرًّا، وأن يمنعهم من إعلان إسلامهم ؛ لأنه لو اجتمع بهم علنًا، حال المشركون بينه وبين ما يريد من تعليمهم وإرشادهم، وربما أدَّى ذلك إلى قتال غير متكافئ بين الفريقين، يؤدي إلى إضعاف إلى المسلمين وكسر شوكتهم .

المشركون والصَّد عن دين الله

كانت دعوة الرسول ـ ﷺ ـ في بدء أمرها بحاجة إلى الكتمان والسرية، حتى لا تصطدم مع تعنت زعماء قريش عَبَدَة الأصنام ومكابرتهم، الذين لا يخطر ببالهم أن يجرؤ أحد على النيل من آلهتهم، ومن قدسيتها، فمكانتها عند القرشيين عالية لا يَعدِلُها شيء.

ولما تنامى عدد الداخلين في الإسلام تنبهت قريش لأمر الإسلام، فحاولوا صد من يكتشفون إسلامه عن دينه، وقد تنوعت أساليبهم بين استخدام التأثير العاطفي والضغط النفسي حينًا، وبين استخدام القوة والقهر أحيانًا، إلا أن ذلك لم يزد أولئك المؤمنين الأوائل إلا ثباتًا وتمسكًا بدينهم .

فقد حلفت أم سعد بن أبي وقاص ـ رضي الله عنه ـ وهو من أبرِّ الناس بأمه ألَّا تُكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل، ولا تشرب، ومَكَثَت ثلاثة أيام حتى غُشي عليها من الجَهد . فقام ابن لها يقال له عُمارة فسقاها، فجعلت تدعو على سعد.

كما كان عمُّ الزبير بن العوام يعذبه بالنار كي يرتد عن الإسلام، ومع هذا كله فلم تكن قريش تعير دعوة رسول الله ـ ﷺ ـ عناية بالغة في تلك الفترة، حتى بدأ النبي ـ ﷺ ـ يجهر بدعوته بين أظهرهم وفي أنديتهم، ويسفه آلهتهم، وحينها ثار المشركون وبدؤوا في مجابهة الدعوة.

إسلام الجن

حين بُعث النبي ـ ﷺ ـ حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُهُب ـ وقد جاء في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنه ، قال: « انطلق النبي ـ ﷺ ـ في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حِيلَ بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرسلت عليهم الشُهُب، فرجعت الشياطين إلى قومهم، فقالوا: " ما لكم ؟ " فقالوا: " حِيل بيننا وبين خبر السماء، وأُرسلت علينا الشهب " قالوا: " ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها ؛ فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء". فانصرف أُولئك الذين توجهوا نحو تُهامة إلى النبي ـ ﷺ ـ وهو بِنَخلة عَامدين إلى سوق عكاظ، وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: " هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء " فهنالك رجعوا إلى قومهم وقالوا: " يا قومنا إنا سمعنا قرآنًا عجبًا، يهدي إلى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدًا ". فأنزل الله على نبيه ﷺ : ﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ ﴾ وإنما أوحيَ إليه قولُ الجن.

ولم يرَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ الجنَ في هذه المرة ولم يقرأ عليهم، وفي مرة ثانية دعا الجنُ رسولَ الله ـ ﷺ ـ وهو معسكر في أصحابه خارج مكة، فذهب معهم، وقرأ عليهم القرآن، ثم أرى أصحابه آثارهم، وآثار نيرانهم، وقد ذكر الشَعْبِيُّ أنهم وفد جن نَصيبين.

إسلام عمرو بن عَبسة السلمي

كان عمرو بن عبسة السلمي - رضي الله عنه - من أوائل الداخلين في الإسلام، يقول : " قَدِمْتُ مكة، فإذا رسول الله - ﷺ - جِرَاءٌ عليه قومه، فتلطفت حتى دخلتُ عليه، فقلت : " ما أنت ؟" قال : ((**نبي**)) قلت : "وما نبي ؟" قال : ((**أرسلني الله**)) . قلت : "بما أرسلك ؟ " قال : ((**بِصِلَة الأرحام، وكسر الأوثان، وأن يُوَحَّد الله**)) . قلت : " من معك على هذا ؟ " قال : ((**حُرٌّ وعَبْدٌ**)) فقلت : " إني متَّبِعُك " قال : ((**إنك لا تستطيع ذاك يومك هذا ؛ ألا ترى حالي ؟! فإذا سمعت بي قد ظهرت، فائتني**)).

فذهبت إلى أهلي، وجعلت أتخبَّر الأخبار، حتى قَدِمَ على أهل يثرب ؛ فقدمت المدينة، فأتيته .

وفي رواية أخرى يقول عمرو : " لَقيتُ رجلًا من أهل الكتاب من أهل تيماء، فقلت: " إني أمرؤٌ ممن يَعبُدُ الحجارة، فَيَخْرُجُ الرجلُ منهم فيأتي بأربعة أحجار، فينصب ثلاثةً لقدره، ويجعل أحسنها إلهاً يعبُده، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه فيتركه، ويأخذ غيره إذا نزل منزلًا سواه ؛ فرأيت أنه إله باطلٌ لا ينفع ولا يضر، فدُلَّني على خير من هذا ".

فقال الرجل: " يخرُج من مكة رجلٌ يَرغَبُ عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها، فإذا رأيت ذلك فاتبعه ؛ فإنه يأتي بأفضل الدين ". قال عمرو بن عبسة : " فلم تكن لي هِمَّةٌ منذ قال لي ذلك إلا مكة ".

أعداءُ الدعوة

لم تكن مَهَمَّةَ النبي - ﷺ - في نشر الإسلام والدعوة إليه بين الناس في مكة بالأمر السهل، فقد واجه - ﷺ - منذ بدء الدعوة الكثير من العقبات في ذلك المجتمع الجاهلي الذي تربى على تعظيم الأصنام، والافتتان بها. إذ وقف رجالات قريش وساداتهم في طريقه، وتصدوا لدعوته، واجتهدوا كي يحولوا بينه وبين تبليغ رسالة ربه، ولقد كان في طليعة أولئك السفهاء، وألد الأعداء: الأسود بن عبدالمطلب، والأسود بن يغوث، حيث كانا يسخران من النبي - ﷺ - ويؤذيانه، ويستهزئان به وبما جاء به.

كما كان أبو جهل، وعُقبة بن أبي مُعَيط، وعتبة بن أبي ربيعة من أشدِّ أعداء الدعوة، وألدِّ خصومها، الذين كان لهم الدور الأكبر في تعذيب المسلمين وإيذائهم، والتعرض لنبي الله - ﷺ - ولدعوته والسخرية منه .

وكان أبو لهب عمِّ النبي - ﷺ - شديد العداوة لرسول ﷺ، ومن الذي وقفوا مواقف مخزية في الصد عن دين الله، وإيذاء نبيه . وكان قد زوج ولديه عتبة وعتيبة ببنتى رسول الله - ﷺ - رقية وأم كلثوم قبل البعثة، فلما بُعث الرسول - ﷺ - أمرهما بتطليقهما فطلقاهما.

ومن أعداء الدعوة أيضًا الوليد بن المغيرة، وقد كان من أغنى أهل مكة، وأكثرهم مالًا، وكان متكبرًا، متغطرسًا، متعاليًا، شديد السخرية والاستهزاء بالرسول - ﷺ - وبالمسلمين.

الدعوة الجهرية

استمر النبي ـ ﷺ ـ في الدعوة السرية زمنًا، وكثر عدد الداخلين في الإسلام، وقويت شوكتهم، وانتشر الإسلام في مكة، وشاع أمره بينهم، فجاء الأمر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ بالجهر بالدعوة، حين نزل قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿٩٤﴾ ﴾ فقام النبي ـ ﷺ ـ ذات يوم على الصفا ينادي أهل مكة، فلما اجتمع إليه الناس قال: « **أرأيتم إنْ أنبأتكم أنَّ وراء هذا الجبل عدوًا يتربص بكم، أمصدقيَّ أنتم؟** » فقالوا: " ما عهدنا فيك إلا الصدق والأمانة " فقال: « **إني لكم نذيرٌ بين يدي عذابٍ شديدٍ** » ثم بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ يدعوهم إلى الله، ونبذِ ما هم فيه من عبادة الأصنام، فقام عمه أبو لهب، وكان من أشد الناس عداوة للرسول ﷺ، فقال : " تبًّا لك، ألهذا جمعتنا ؟ " فأنزل الله فيه: ﴿ تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴿١﴾ مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصۡلَىٰ نَارٗا ذَاتَ لَهَبٖ ﴿٣﴾ وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبۡلٞ مِّن مَّسَدِۭ ﴿٥﴾ ﴾.

ولما بدأ رسول الله ـ ﷺ ـ يجهر بدعوته بين ظهراني المشركين، ويسفه آلهتهم، ازداد إعراضهم وتعنتهم، وتكذيبهم للرسول ﷺ، كما اشتد أذاهم له ولأصحابه، وأغروا به سفهاءهم، ورموه بالشعر، والسحر، والكهانة، والجنون.

أثر الجهر بالدعوة

لم يكن رسول ـ ﷺ ـ يبالي بما كان يناله من المشركين من الأذى، والسخرية والاستهزاء به وبدعوته، فقد ازداد أذى المشركين له ولأصحابه لما أخذ يجهر بدعوته، إلا أن ذلك لم يصرفه ـ ﷺ ـ عن إعلان دعوته، فكان يجهر بها في أماكن تجمع الناس، ويصلي عند الكعبة، و يأتي المشركين في أسواقهم وأنديتهم ليدعوهم إلى الإسلام.

ولما رأى كفار قريش أن السبَّ، والشتم، والسخرية، والتعذيب لم تنفع في منع رسول الله ـ ﷺ ـ من الاستمرار في الدعوة إلى التوحيد، ونبذ عبادة الأصنام، تحولوا إلى أسلوب جديد، وذلك عن طريق المفاوضات والإقناع، والاستعانة بعمه أبي طالب، لعل ذلك يجدي في التأثير في النبي ﷺ، فقد مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب، فقالوا: "يا أبا طالب، إن ابن أخيك قد سب آلهتنا، وعاب ديننا، وسَفَّه أحلامنا، وضلل آباءنا، فإما أن تكُفَّه عنا، وإما أن تُخلى بيننا وبينه، فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فنكْفِيكَه " فقال لهم أبو طالب قولًا رقيقًا وردهم ردًا جميلًا، فانصرفوا عنه .

ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ في تبليغ الرسالة، وإقامة الحجة، وإيصال الحق إلى الناس، يجتهد كي يُخرجهم من ظلمات الجهل وعبادة الأوثان، إلى نور الإسلام، وصفاء التوحيد.

قريش تهدد أبا طالب

حينما لم تنجح محاولات قريش في إقناع النبي - ﷺ - عن طريق عمه بالتوقف عن الدعوة لدين الله، وحين رأوا أن تلك المحاولات لم تُجدِ نفعًا، وأن النبي - ﷺ - مستمرٌ في الجهر بدعوته، لم يُطق أعداء الحق صبرًا وهم يرون نور الإسلام ينتشر في أرجاء مكة، فقرر رؤوس الكفر مراجعة أبي طالب مرة أخرى وبأسلوب آخر، فذهبوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة وقالوا له: " يا أبا طالب، إن هذا الفتى أنْهَدَ فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولدًا فهو لك، وأسْلِمْ إلينا ابن أخيك هذا الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم، فنقتله، فإنما هو رجل برجل " فقال: " والله لبئس ما تسومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله ما لا يكون أبدًا ." فقال المطعم بن عدي: " والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئًا ".

فقال: " والله ما أنصفتموني، ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم عليَّ، فاصنع ما بدا لك."

قريش تحاول إغراء النبي ﷺ

لما عجزت قريش عن منع النبي ـ ﷺ ـ من الاستمرار في دعوته، أو التأثير في عمه كي يعمل على منعه، سلكوا مسلكًا جديدًا، فجاء عتبة بن ربيعة ، أحد سادات مكة ، إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فقال : " يا ابن أخي: إنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفَّرت به من مضى من آبائهم . فاسمع مني أعرض عليك أمورًا ، لعلك تقبل منها بعضها . " فقال له رسول الله ـ ﷺ ـ : ((**قل يا أبا الوليد أسمع**)) .

قال: " يا ابن أخي : إن كنت إنما تريد بما جئت به مالًا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالًا، وإن كنت تريد به منصبًا وشرفًا سودناك علينا، وإن كنت تريد به ملكًا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئيًا تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الأطباء ، وسعينا لك حتى نبرئك منه . " فلما فرغ عتبة قال رسول الله ﷺ : ((أفرغت يا أبا الوليد ؟)) قال: " نعم " قال: ((فاستمع مني)) فقرأ الرسول ﷺ: بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٞ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا لِّقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ۝٣ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ ۝٤﴾ فأنصتَ عُتبة ، وألقى يديه خلف ظهره يستمع حتى انتهى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السجدة فسجد ، ثم قال: ((**قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك**)) .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال: " لقد سمعت قولًا والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش: أطيعوني، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فوالله ليكونَن لقوله الذي سمعت نبأ ..". قالوا: " سحرك ـ والله ـ يا أبا الوليد بلسانه !" قال: " هذا رأيي فاصنعوا ما بدا لكم ."

الهجرة إلى الحبشة

لما فشلت محاولات قريش الكثيرة في صد المسلمين عن دينهم، ومنع الرسول ـ ﷺ ـ من تبليغ رسالة ربه، اجتهدوا في أذيته، وتعذيب أصحابه، فلما رأى النبي ـ ﷺ ـ ما حلَّ بأصحابه، وعدم قدرته على حمايتهم ؛ أذنَ لهم بالهجرة إلى الحبشة عند النجاشي، وقال: ((**إن فيها ملكًا لا يُظلم عنده أحد**)) فهاجر أحد عشر رجلًا وأربع نسوة، وكانت في السنة الخامسة للبعثة، وكانت أول هجرة في الإسلام .

وقد وصفت أم المؤمنين أم سلمة زوج النبي ـ ﷺ ـ هذا الحدث فقالت: " لما ضاقت علينا مكة، وأوذي أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وفتنوا، ورأوا ما يصيبهم من البلاء، والفتنة في دينهم، وأن رسول الله ـ ﷺ ـ لا يستطيع دفع ذلك عنهم، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ في مَنَعَةٍ من قومه وعمه، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه، فقال لهم رسول الله ﷺ : ((**إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم عنده أحد، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه**)). فخرجنا إليها أرسالًا ـ أي: جماعات ـ حتى اجتمعنا بها، فنزلنا بخير دار إلى خير جار، أَمِنَّا على ديننا، ولم نخش منه ظلمًا ".

أبو بكر والهجرة إلى الحبشة

لما ابتُلي المسلمون، خرج أبو بكر مهاجرًا إلى الحبشة، فلقيه ابن الدُغِنَّة، فقال: " أين تريد يا أبا بكر؟ " فقال أبو بكر: " أخرجني قومي، فأنا أريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي." قال ابن الدُغِنَّةِ: " إن مثلك لا يُخرج ولا يَخرُج، فإنك تُكسب المعدوم، وتصلُ الرحمَ، وتحمل الكلَّ، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فاعبد ربك ببلادك " فرجع أبو بكر، وأنفَذَت قريشٌ جوار ابن الدُغِنَّةِ ، وقالوا لابن الدُغِنَّةِ: " مر أبا بكر فليعبد ربه في داره، فليُصَلِّ، وليقرأ ما شاء، ولا يُعْلِن به، فإنا نخشى أن يفتن أبناءنا ونساءنا." فقال ذلك ابن الدُغِنَّةِ لأبي بكر، فأخذ أبو بكر يعبد ربه في داره، ولا يظهر شيئًا من الصلاة، ولا القراءة، ثم بدا لأبي بكر، فابتنى مسجدًا بفناء داره وبرز، فكان يصلي فيه، ويقرأ القرآن، فيجتمع عليه نساء المشركين وأبناؤهم، يعجبون وينظرون إليه، وكان أبو بكر رجلًا بكاءً، لا يملك دمعه حين يقرأ القرآن، فأفزع ذلك أشراف قريش من المشركين، فطلبوا من ابن الدُغِنَّةِ أن يكلم أبا بكر ألا يعلن صلاته .

فأتى ابن الدُغِنَّةِ أبا بكر، فقال: " قد عَلِمْتَ الذي عقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترد إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أني أخفرت في رجل عقدت له." قال أبو بكر: "إني أرد لك جوارك، وأرضى جوار الله ".

الهجرة الثانية إلى الحبشة

صلى رسولُ الله ـ ﷺ ـ يومًا في المسجد الحرام، فقرأ سورة النجم، فلما بلغ السجدة سجد، وسجد معه من كان حاضرًا من المسلمين والمشركين الذين قرع أسماعهم أخبار الأمم السابقة التي أهلكها الله حين تجبرت وعاندت، فشاع بين الناس أن قريشًا أسلمت، ووصلت هذه الإشاعة إلى المسلمين المهاجرين في الحبشة ؛ فرجع بعضهم إلى مكة، لكنهم أدركوا حقيقة الأمر، فعاد بعضهم إلى الحبشة مرة أخرى، وهاجر معهم آخرون بسبب ما نالهم من أذى قريش، وكان عدد من هاجر هذه المرة قريبًا من الثمانين، وهذه هي الهجرة الثانية.

غضبت قريش من هجرة المسلمين، وخافوا من تجمعهم، وظهور أمرهم، فبعثوا عبدُ الله بنِ أبي ربيعة و عمرو بن العاص بالهدايا إلى النجاشي لِيَرُدَّهُم، و تشفعوا إليه بالقواد من جنده، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فوشوا إليه : أن المسلمين يقولونَ في عيسى قولًا عظيمًا، فأُحْضِر المسلمون إلى مجلسه، فسألهم: "ما تقولون في عيسى ؟" فتلا عليه جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ سورة (مريم) فلما فرغ أخذ النجاشي عودًا من الأرض، فقال :" ما زاد هذا على ما في التوراة ولا هذا العود " ثم قال :" اذهبوا فأنتم آمنون بأرضي، من سبكم غَرُم " وقال لعمرو وعبد الله :"والله لو أعطيتموني الذهب ما سلمتهم إليكما ". ثم ردَّ عليهما هداياهما، و رجعا إلى مكة خائبين خاسرين.

إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه

كان عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ رجلًا قويًّا مهيبًا، وكان شديد الأذى للمسلمين، ولم يكن يخطر ببال بعضهم أن يُسلم عمر لِما كانوا يرون من شدته وغلظته على المسلمين، تقول أم عبد الله بنت أبي حثمة : "والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر في بعض حاجتنا، إذ أقبل عمر حتى وقف عليَّ وهو على شِرْكه، وكنا نلقى منه البلاء أذىً وشدةً علينا، فقال: "إنه للانطلاق يا أم عبد الله ؟" قلت : "نعم والله، لنخرُجَنَّ في أرض الله، فقد آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله مخرجًا" فقال: "صحبكم الله" ورأيت له رقةً لم أكن أراها . فلما عاد عامر أخبرتُهُ وقلت: " لو رأيت عمر ورقته وحزنه علينا ." قال: "أطمعت في إسلامه ؟" قلت : "نعم" فقال: "فلا يُسلمُ الذي رأيتي حتى يسلم حمار الخطاب" وذلك لِـمَا كان يرى من غلظته وشدته على المسلمين.

وقد جاء أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يدعو ربه أن يُعِزَّ به الإسلام، وقد استجاب الله دعاء نبيه، فأسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وكان لإسلامه وقعًا شديدًا على قريش .

يقول عبدالله بن مسعود رضي الله عنه : " لقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا نصلي ".

وذكر ابن حجر أن الباعث له على الإسلام ما سمع عند أخته من القرآن.

إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه

جاء في صحيح مسلم أن الطفيل بن عمرو الدوسي ـ رضي الله عنه ـ أتى النبي ﷺ، فقال : " يا رسول الله، هل لك في حِصنٍ حَصين ومنعة؟ قال حِصنٌ كان لدوس في الجاهلية، فأبى ذلك النبي ـ ﷺ ـ للذي أَعَدَّ الله للأنصار، فلما هاجر النبي ـ ﷺ ـ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل بن عمرو، وهاجر معه رجل من قومه، فاجتووا المدينة، فمرض الرجل، فجزع فأخذ سهم معه فقطع بها براجمه، فشخبت يداه حتى مات . فرآه الطفيل بن عمرو في منامه، فرآه وهيئَتُهُ حسنة، ورآه مغطيًا يديه، فقال له: " ما صنع بك ربك ؟" فقال : "غفر لي بهجرتي إلى نبيه ﷺ ." فقال: " مالي أراك مغطيًا يديك ؟" قال : " قيل لي لن نصلح منك ما أفسدت ." فقصها الطفيل على رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ : ((**اللهم وَلِيَدَيْهِ فاغفر**)).

وقد أخذ الطفيل بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ يدعو قومه، فأسلم من أسلم وأبى من أبى، ثم أنه قَدِمَ على رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه فقالوا: " يا رسول الله، إن دوسًا قد كفرت وأبت، فأدع الله عليها" فقيل هلكت دوس فقال ﷺ: ((**اللهم اهد دوسـًا وأت بهم**)).

وعاد الطفيل إلى قومه يدعوهم ويرفق بهم، فرجع بعد زمن ومعه ثمانون بيتًا كلهم قد أسلموا وحسن إسلامهم.

حِصارُ المسلمين في شعب أبي طالب

استمرت قُريش في محاربة النبي ـ ﷺ ـ ودعوته، واتَّبعت في ذلك أساليب عديدة، حيث عذبت، واضطهدت، وهدَّدت، وأغْرَت، لكن كل ذلك لم يؤدِّ إلا إلى مزيد من تمسك المسلمين بدينهم، وزيادة في عدد المؤمنين. ومما زاد من غضب قريش على المسلمين فشلهم في استعادة المهاجرين إلى الحبشة ؛ فازداد أذاهم للمسلمين، وقرروا قتل رسول الله ﷺ، فأجمع بنو طالب على حمايته، وانحازوا إلى شعب أبي طالب، فقررت قريش مقاطعتهم، وكتبوا في ذلك صحيفة وقعوا عليها جميعًا، وعلقوها في داخل الكعبة، تعاهدوا فيها على مقاطعة المسلمين وبني هاشم، مقاطعة كلية، فلا يكون معهم بيع ولا شراء، ولا زواج، ولا تعاون، ولا تعامل.

عانى المسلمون معاناةً شديدةً، وقاسوا صنوفًا من الجوع والشدة، وبذل القادرون منهم جُلَّ أموالهم، حتى أنفقت خديجة ـ رضي الله عنها ـ كل مالها. وتفَشَّت فيهم الأمراض، وأشرف معظمهم على الهلاك، لكنهم صمدوا، وصبروا، وما تراجع منهم أحد، ودام الحصار ثلاثة أعوام، حتى قام نفرٌ من رجالات قريش البارزين ممن تربطهم ببعض بني هاشم قرابة بنقض ما في الصحيفة وأعلنوا ذلك على الملأ، وعاد المسلمون وبنو هاشم إلى مكة . إلا أن قريشًا استمرت في إيذائهم، والتضييق عليهم .

عام الحزن

بعد خروج بني هاشم من الشعب بزمن يسير، اشتد المرض بأبي طالب، عم النبي - ﷺ - وحضرته الوفاة، وجاء إليه رسول الله - ﷺ - وهو يعاني سكرات الموت، فجلس عند رأسه، وأخذ يحاول إقناعه أن يقول: "لا إله إلا الله" قبل أن يموت، قائلا: ((**قل لا إله إلا الله، أشهد لك بها يوم القيامة**)) لكن جلساء السوء الذين كانوا عنده، وعلى رأسهم أبو جهل أخذوا يحذرونه، ويقولون له: " أتترك دين آبائك وأجدادك ؟! أترغب عن ملة عبدالمطلب ؟! " واستمروا به حتى مات على الشرك، فكان حزن الرسول - ﷺ - على عمه مضاعفًا حيث مات مشركًا، وهكذا هم رفقاء السوء لا يزالون بالمرء حتى يهلكوه.

ولما مات أبو طالب ازداد أذى المشركين لرسول الله ﷺ، ونالوا منه أكثر مما كانوا ينالون منه من قبل، ولم يكن في بني هاشم من يستطيع أن يقوم مقام أبي طالب في حماية النبي - ﷺ - ونصرة دعوته.

وبعد زمن يسير من وفاة أبي طالب، توفيت خديجة رضي الله عنها، فحزن عليها الرسول - ﷺ - حزنًا شديدًا، فقد كانت تلك الزوجة الصالحة تواسي رسول الله - ﷺ - بنفسها ومالها.

المشركون ومحاربة الدعوة (١)

تعددت أساليبُ المشركين في محاربة الدعوة، وتنوعت وسائِلُهم للحدِّ من انتشار الإسلام، وكثرت طرائقهم لصدِّ الناس عن دينهم، ومن ذلك:

التهديد : فقد ذهب جماعة من سادات قريش إلى أبي طالب عم النبي - ﷺ - فقالوا : " إن محمدًا يؤذينا، وينال من آلهتنا ؛ فانهه عن ذلك." فأرسل إليه، وقال له: " يا ابن أخي إن بني عمك زعموا أنك تؤذيهم وتنال من آلهتهم، فانته عن ذلك ." فأشار رسول الله - ﷺ - إلى الشمس وقال : " ما أنا بأقدر على أن أدع لكم ذلك، على أن تشعلوا لي منها شعلة ". فقال أبو طالب : " ما كذب ابن أخي، فاتركوه وشأنه ".

الاتهامات الباطلة : فقد اتهموا النبي - ﷺ - بالجنون، واتهموه بالسحر، واتهموه بالكذب، واتهموه بالإتيان بالأساطير .

السخرية والاستهزاء والضحك : فكثيرًا ما كانوا يسخرون من النبي - ﷺ - وأصحابه، فكان إذا مرَّ بهم سخروا منه، واستهزؤوا به، وتكلموا في شأنه ﷺ .

وإذا رأوه مع أصحابه من المستضعفين استهزؤوا بهم وقالوا : " هؤلاء جلساؤه وأتباعه".

المشركون ومحاربة الدعوة (٢)

كان من أساليب المشركين في محاربة الدعوة:

تشويه تعاليم الإسلام وإثارة الشبهات حوله، وبث الدعايات الكاذبة، فكانوا يَدَّعون أن القرآن إنما هو قصص وأساطير الأولين، كما كانوا يدَّعون أن الذي يعلم النبي - ﷺ - إنما هو بشر .

وكان من أساليبهم إيذاء النبي ﷺ : فقد لجأت قريش إلى الاعتداء الجسدي على النبي ﷺ، فقد جاء عُقبة بن أبي مُعيط إلى النبي - ﷺ - وهو يصلي فوضع رداءه في عنقه فخنقه خنقًا شديدًا، حتى جاء أبو بكر - رضي الله عنه - فدفعه عنه وقال: " أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم؟ ".

وبينما كان رسول الله - ﷺ - يصلي عند البيت وأبو جهل وأصحاب له جلوس، قال أبو جهل : " أيكم يقوم إلى سلا جزور بني فلان فيأخذه فيضعه في كتفي محمد إذا سجد ". فانبعث أحدهم، فلما سجد النبي - ﷺ - وضعه بين كتفيه، قال : فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض، فأقبلت فاطمة ابنة النبي - ﷺ - فطرحته عنه .

وقال أبو جهل مرة : " لئن رأيت محمدًا يصلي لأطأن على رقبته، ولأعفرن وجهه في التراب " فأتى رسولَ الله - ﷺ - وهو يصلي - يزعم أنه يطأ رقبته - فما فجأهم إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، فقالوا : " مالك يا أبا الحكم ؟" قال : " إنَّ بيني وبينه لخندقًا من نار ".

المشركون ومحاربة الدعوة (٣)

وكان من أساليب المشركين أيضًا في محاربة الدعوة:

إيذاءُ الصحابة رضي الله عنهم : فقد كانوا يؤذون أصحاب النبي ـ ﷺ ـ ويعذبونهم، وكانوا يوثقون بعض المستضعفين من العبيد، ويطرحونهم في الشمس، ويذيقونهم أصناف العذاب، بل كانوا يتفننون في ذلك، ويتعاقبون على تعذيبهم.

فقد كان بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر، وبأبيه وأمه رضي الله عنهم ، ويطرحونهم في الرمضاء، ويذيقونهم ألوان العذاب، ويتركونهم بلا طعام ولا ماء، ثم قتلوا والدته، ومات أبوه من شدة العذاب .

وكان المشركون يسحبون خباب بن الأرت ـ رضي الله عنه ـ بشعره، ويلوون عنقه بعنف، ويُضجِعُونه على الصخور الملتهبة، ويضعون فوق صدره الحجارة الثقيلة.

ولم يَسْلم من أذاهم أحد، حتى من أسلم من أشرافهم، فقد اعتدوا على عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حينما أسلم، وحاولوا قتله، وتعرضوا لأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ وضربوه برغم مكانته وشرفه فيهم .

وقد أدى ذلك ببعض المسلمين إلى أن يوافق المشركين بلسانه على ما يطلبون ليفتدي نفسه من شدة العذاب، إلا ما كان من بلال الذي هانت عليه نفسه، فقد كان يردد : "أحدٌ أحد " كلما ازدادوا في تعذيبه .

انشقاق القمر

كان كفار قريش يكثرون من الجدل والتحدي لرسول الله ﷺ، وكان من جُملة جدالهم لرسول الله ـ ﷺ ـ مطالبته بعمل المعجزات أمامهم كي يُثبت صحة رسالته، وقد تكرر ذلك منهم مرارًا، ومع كثرة ما كانوا يرون من تلك المعجزات إلا أن ذلك لم يكن يزيدهم إلا نفورًا واستكبارًا، فقد سألوه مرة أن يَشُقَّ لهم القمر نصفين، وأكدوا له أنه إن فعل ذلك فسوف يؤمنون به ويتبعونه، فسأل ربه أن يشق لهم القمر، فأراهم القمر قد انشق فرقتين، ورأى كفار قريش هذه الآية لوقت طويل، لكنهم لم يؤمنوا، بل قالوا: " لقد سحَرَنا محمد " فقال رجلٌ منهم : " إن كان محمد سحركم فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فانتظروا حتى يأتي بعض من كان مسافرًا، فنسألهم إن كانوا قد رأوا القمر قد انشق أم لا ". فلما جاء بعض السُفَّار سألوهم، فقالوا: " نعم قد رأيناه ". ولكن قريشًا مع ذلك أصرُّوا على كفرهم وعنادهم، وعدم تصديقهم.

وإنما كان طلب كفار قريش للمعجزات على سبيل التعنت والاستهزاء، وليس رغبة في التثبت من صحة نبوة محمد ﷺ .

الرسول ـ ﷺ ـ في الطائف

لما تمادت قريش في طغيانها وتسلُّطها وإيذائها للمسلمين ؛ فكر النبي ـ ﷺ ـ في الذهاب إلى الطائف ؛ لعل الله أن يهديهم إلى الإسلام. ولم تكن الرحلة إلى الطائف بالأمر الهين نظرًا لصعوبة الطريق بسبب الجبال العالية المحيطة بها، ولكن مع كل تلك المشاقِّ التي تكبدها رسول الله ـ ﷺ ـ في الطريق، فقد كان استقبال أهل الطائف له ـ ﷺ ـ وردُّهم إيَّاه قبيحًا، فلم يستمعوا إليه، بل طردوه، وأغروا به صبيانهم ؛ فقذفوه بالحجارة حتى أدموا عقبيه، فعاد أدراجه قاصدًا مكة، وهو كئيب حزين، فجاءه جبريل ومعه ملَك الجبال، فناداه جبريل عليه السلام: ((**إن الله بعث إليك ملَك الجبال لتأمره بما شئت**))، فقال ملك الجبال: ((**يا محمد، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين** (وهما جبلان محيطان بمكة)))، فقال ﷺ: ((**بل أرجو أن يُخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا**))، وهذا من عظيم صبره ﷺ، ورحمته بقومه، على ما ناله من الأذى الشديد منهم.

وقد بقيت تلك الذكرى الأليمة في نفس رسول الله ﷺ، فقد سألته عائشة ـ رضي الله عنها ـ يومًا فقالت : هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فذكر لها ما لقيه من أهل الطائف، إلى أن قال : ((**فانطلقتُ وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب**)) وهو المعروف الآن بالسيل الكبير .

الإسراء والمعراج

بعد عودة الرسول ـ ﷺ ـ من الطائف وما حصل له فيها من الأذى والهم، وبعد وفاة عمه، وزوجته خديجة رضي الله عنها، ومع اشتداد أذى قريش للمسلمين ؛ اجتمعت الهموم على قلب النبي ﷺ ؛ فجاءته المواساة من ربه . ففي إحدى الليالي جاءه جبريل ـ عليه السلام ـ بالبراق، وهو دابة تشبه الفرس، له جناحان، سريع العدو كالبرق، فأركبه عليه، ثم مضى به إلى بيت المقدس في فلسطين، ومن هناك عَرَج به إلى السماء، ورأى من آيات ربه شيئًا كثيرًا، وفي السماء فُرضت عليه الصلوات الخمس، وعاد ـ ﷺ ـ في الليلة نفسها إلى مكة المكرمة منشرح البال، راسخ اليقين، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ۝١﴾ {الإسراء} فلما أصبح أخذ يُحدِّثُ الناس بما حصل له، فاشتد تكذيب الكفار له، واستهزاؤهم به، ثم سأله بعض الحاضرين أن يصف لهم بيت المقدس، وذلك لتعجيزه، فأخذ يصفه لهم جُزءًا جُزءًا، ثم قال ـ ﷺ ـ : ((**لقد لقيت في الطريق قافلةً آتيةً صوب مكة**)) ووصفها لهم، وأخبرهم بعدد جِمالها ووقت قدومها، لكنهم استمروا على كفرهم وعنادهم وعدم التصديق. وفي صبيحة يوم الإسراء جاء جبريل وعلم الرسول ـ ﷺ ـ كيفية الصلوات الخمس وأوقاتها، وكانت الصلاة قبل ذلك ركعتين في الصباح، وركعتين في المساء.

بيعةُ العَقَبة

لما استمرت قريش في تكذيبها وعنادها ركَّزَ رسول الله ـ ﷺ ـ دعوته على القادمين إلى مكة، فكان ـ ﷺ ـ يَعْرِضُ نفسه في المواسم على قبائل العرب يدعوهم إلى الله، ويخبرهم أنه نبي مرسل، يطلب منهم أن يتبعوه ويمنعوه حتى يبين عن الله ما بعثه به، وكان عمه أبو لهب يتبعه، ويحذر القبائل من تصديقه .

فعن ربيعة بن عباد قال: "رأيت رسول الله ـ ﷺ ـ و هو يدعو الناس إلى الإسلام بذي المجاز، و خلفه رجلٌ أحول يقول : لا يغلبنكم هذا عن دينكم و دين آبائكم، قلت لأبي و أنا غلام : من هذا الأحول الذي يمشي خلفه ؟ قال : هذا عمه أبو لهب.

وفي ذات مرة جاء رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جماعة من أهل المدينة، فدعاهم، فاستجابوا له، وقد كان أهل المدينة يسمعون من اليهود أن نبيًّا قد قرب زمان بعثته، فلما دعاهم عرفوا أنه النبي الذي تذكره اليهود ؛ فأسرعوا إلى الإسلام، وقالوا : " لا تسبِقُكم اليهود إلى ذلك " وكانوا ستة أشخاص، وفي العام التالي قدم من المدينة اثنا عشر رجلًا، فاجتمعوا برسول الله ـ ﷺ ـ فأسلموا، ولما رجعوا إلى المدينة أرسل معهم مصعب بن عمير رضي الله عنه، ليعلمهم القرآن وأحكام الدين، ثم في العام التالي عاد مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ إلى مكة ومعه اثنان وسبعون رجلًا وامرأتان، فاجتمع بهم النبي ـ ﷺ ـ فبايعوه وعاهدوه على حمايته ونصرة دينه .

الهجرة إلى المدينة

لما انتشر الإسلامُ في المدينة، أصبحت ملاذًا آمنًا للحق وأهله ؛ فبدأ المسلمون في مكة يُهاجرون إليها، غير أن قريشًا لم تترك المسلمين وشأنهم كي يهاجروا بدينهم، خوفًا من أن يظهر أمرهم، وتقوى شوكتهم، وترتفع راية الإسلام، فلقي بعض المهاجرين أنواعًا كثيرة من الأذى والعذاب من أجل الحيلولة بينهم وبين الهجرة، إلا أن ذلك لم يمنعهم من التضحية بكل شيء في سبيل الفرار بدينهم، وكان المسلمون يهاجرون سرًّا .

وكان أول من هاجر، أبو سلمة بن عبدالأسد، وكان مصعب بن عمير وابن أم مكتوم من أوائل المهاجرين، وهاجر بلال بن رباح، وعمار بن ياسر، وسعد بن أبي وقاص، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وحمزة بن عبدالمطلب، وطلحة، والزبير بن العوام، وغيرهم رضي الله عنهم ، ولم يبق في مكة مع رسول الله ـ ﷺ ـ غير أبي بكر وعلي بن أبي طالب ـ رضي الله عنهما ـ وبعضُ من حُبس وفُتن .

واستأذن أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ رسول الله ـ ﷺ ـ في الهجرة، فقال له : ((**لا تعجل، لعل الله يجعل لك صاحبًا**)). فبقيَ حتى جاء الإذن للنبي ـ ﷺ ـ بالهجرة بعد أن هاجر أكثر المسلمين، فأصبح رفيق رسول الله ـ ﷺ ـ في هجرته.

قريش تتآمر على قتل النبي ﷺ

جُنَّ جنون قريش لما رأوا هجرة المسلمين وتجمُّعِهم في المدينة، فتشاوروا في الأمر، فقال أبو جهل: " أرى أن نُعطي شابًا جلدًا من كل قبيلة منا سيفًا، فيحيطوا بمحمد ويضربوه ضربة رجل واحد، فيتفرق دمه في القبائل ؛ ولا يقوى بنو هاشم بعد هذا على معاداة كل الناس ". ولقد أطْلَع الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه الكريم ـ ﷺ ـ على مؤامرة المشركين ؛ فاتفق مع أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على الهجرة بعد أن أذن الله له بذلك، وفي الليل طلب النبي ـ ﷺ ـ إلى علي بن أبي طالب أن ينام مكانه ؛ ليُوهِمَ الناس أنه ما زال في بيته، كما كان عند رسول الله ـ ﷺ ـ أمانات كثيرة لكفار قريش، فأراد منه أن يبقى في مكة حتى يردها إلى أصحابها .

ولما جاء المتآمرون وطوقوا البيت، ورأوا عليًّا في الفراش، ظنوه محمدًا ـ ﷺ ـ فأخذوا ينتظرون خروجه . أما رسول الله ـ ﷺ ـ فخرج من بينهم وهم مطوِّقُون البيت، فَذَرَّ التراب على رؤوسهم ؛ فأخذ الله أبصارهم، فلم يشعروا به ﷺ، وخرج هو وأبو بكر، واختفيا في غار ثور . أما قريش فبقي فتيانها منتظرين حتى الصباح، فلما أصبحوا قام عليٌّ من فراش رسول الله ـ ﷺ ـ فَسُقط في أيديهم، وسألوه عن رسول الله ـ ﷺ ـ فلم يخبرهم بشيء فضربوه وسحبوه، وآذوه .

الطريق إلى المدينة

أرسلت قريشٌ الطلب في كل جهة، وجعلوا مئة ناقة لمن يأتي بمحمد ـ ﷺ ـ حيًّا أو ميتًا، ووصل الطلب إلى باب الغار الذي يختبئ فيه النبي ـ ﷺ ـ وصاحبه، حتى لو أنَّ أحدهم نظر إلى قدميه لرآهما، فاشتد حزن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ على رسول الله ﷺ، فقال له النبي ﷺ : ((**ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما. لا تحزن إن الله معنا**))، لكن القوم لم يروهما.

مكث النبي ـ ﷺ ـ وصاحبه في الغار ثلاثة أيام، ثم انطلقا إلى المدينة، وكان الطريق طويلًا، والشمس حارقة، وفي مساء اليوم الثاني، مرَّا بخيمة رجل يقال له أبو معبد، فطلبا الطعام و الشراب، فلما يجدا عنده شيئًا، إذ لم يكن في غنمه شيئٌ من اللبن، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ إلى إحداها، فمسح ضرعها فدرَّ الحليب، ثم حلبها وملأ إناء كبيرًا فشربوا حتى ارتووا ؛ فلما رأى أبو معبد ذلك، قال: " أنت الذي تزعم قريش أنه صابئ ؟" قال رسول الله ﷺ: ((**إنهم يقولون**))، قال أبو معبد: " أشهد أن ما جئت به حق." ثم قال: " أتبعك ؟" قال: ((**لا، حتى تسمع أنا قد ظهرنا**))، وواصل رسول الله ـ ﷺ ـ وصاحبه أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ سيرهما إلى المدينة. وحين ظهر أمرُ رسول الله ﷺ، اتبعه أبو معبد رضي الله عنه .[1]

[1]- ورد في بعض الروايات أنهما التقيا أم معبد ، لكن الأظهر ما ذكر والله أعلم

سراقة بن مالك يلاحق النبي ﷺ

مما يرويه سراقة ـ رضي الله عنه ـ حول هجرة رسول الله ﷺ، أن قريشًا جعلت مئة ناقة لمن يأتيهم بمحمد ـ ﷺ ـ حيًا أو ميتًا، يقول: "فبينا أنا جالس في قومي إذ أقبل رجل، فقال : " لقد رأيت ثلاثة ركب مروا عليَّ آنفا، إني لأراهم محمدًا وأصحابه." قال : " فأومأت إليه بعيني: أن اسكت، وقلت : " إنما هم بنو فلان يبتغون ضالة لهم، ثم مكثت قليلًا، ثم خرجت في أثرهم، طمعًا في المئة الناقة . قال: فبينما فرسي يشتد بي عثر بي، فسقطت عنه . فقلت : ما هذا ؟ وأخرجت قداحي فاستقسمتُ بها، فخرج السهم الذي أكره . قال: فأبيت إلا أن أتبعه، وركبت في أثره فبينا فرسي يشتد بي، عثر بي، فسقطت عنه . قال فقلت : ما هذا ؟ فأبيت إلا أن أتبعه فركبت في أثره . فلما بدا ليَ القومُ ورأيتهم، عثر بي فرسي، فذهبت يداه في الأرض وسقطت، وتبعهما دُخانٌ كالإعصار، فعرفت حين رأيت ذلك أنه قد مُنع مني، وأنه ظاهر . فناديت القوم فقلت : أنا سراقة بن جعشم انظروني أكلمكم، فقال أبو بكر: " وما تبتغي منا ؟ " قلتُ لمحمد ﷺ: " تكتب لي كتابًا يكون آية بيني وبينك ". قال: ((**اكتب له يا أبا بكر**)) فكتب لي وألقاه إليَّ.

واحتفظ سراقة بالكتاب، إلى أن فُتحت مكة، عندها تقدم سراقة إلى رسول الله ـ ﷺ ـ والكتاب في يده، ثم أعلن إسلامه، فبشره رسول الله ـ ﷺ ـ بأنه سيلبس سواري كسرى في يديه، فكان ذلك أيام الفتوحات، في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

إسلام سيدا الأوس رضي الله عنهما

كان مصعب بن عمير - رضي الله عنه - يدعو إلى الإسلام في المدينة ومعه أسعد بن زرارة، وقد استجاب لهما الكثير، وسمع بهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير سيدا الأوس فقال سعد لأسيد: "اذهب إلى هذين اللذين أتيا ليسفها ضعفاءنا فازجرهما عن أن يأتيا ديارنا " .

فأقبل أُسيد على مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، فقال: " ما جاء بكما إلينا تسفها ضعفاءنا، اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة " فقال له مصعب: " أو تجلس فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره " قال : " أنصفت " فكلمه مصعب عن الإسلام، وتلا عليه القرآن فلما سمع قال: " ما أحسن هذا وأجمله ! " فأسلم وصلى ركعتين.

ثم قال: إن ورائي رجلًا إن أسلم لم يتخلف عنه أحد من قومه، وسأرشده إليكما الآن، ثم ذهب إلى سعد بن معاذ وأقنعه بالذهاب إليهما، فلما قدم عليهما قال مصعب لسعد بن معاذ: " أوَ تقعد فتسمع، فإن رضيت أمرًا قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره " قال: " أنصفت " فعرض عليه مصعب الإسلام، وقرأ عليه القرآن فانشرح صدره وأسلم رضي الله عنه.

ثم غدا سعد بن معاذ إلى قومه فجمعهم، ودعاهم إلى الإسلام فما أمسوا إلا وقد أسلموا جميعًا، إلا رجلًا يقال له: الأُصَيْرِم تأخر إسلامه إلى يوم أحد.

هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه

اتفق عمر بن الخطاب، و عياش بن أبي ربيعة، و هشام بن العاص بن وائل السهمي رضي الله عنهم ، على اللقاء سرًّا في خارج مكة للهجرة إلى المدينة، لكن المشركين قبضوا على هشام وعذبوه، حتى فتنوه عن دينه.

وحينما وصل عمرُ و عياش إلى المدينة حضر أبو جهل، والحارث بن هشام إلى عياش، فقالا له : " إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط، ولا تستظل من شمس حتى تراك "، فشقَّ عليه ذلك، لكنَّ عمر أدرك أنها مكيدة، فقال له : " والله ما يريد القوم إلا أن يفتنوك عن دينك، فاحذرهم" فقال عيَّاش : " أَبرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه "، فقال له عمر : " لك نصف مالي ولا تذهب معهما "، لكنَّه أصرَّ على الخروج، فلم يجد عمر سوى أن يعطيه ناقته كي يفرَّ بها عند الحاجة.

وفي طريق العودة تحايل الرجلان على عياش فهجما عليه وأوثقاه، ثم دخلا به مكَّة وعذَّباه حتى فُتن عن دينه.

ولما نزل قوله تعالى : ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ ﴾

أسرع عمر ـ رضي الله عنه ـ يبشِّر هشام بن العاص بقبول التوبة، وأرسل إليه تلك الآيات على صحيفة، فلما قرأها، تاب وهاجر إلى المدينة مسلما، وتبعه عياش بعد أن تمكن من الفرار من قريش .

من صور التضحية

كان في هجرة صهيب الرومي ـ رضي الله عنه ـ درسٌ بليغٌ في التضحية، وإيثار الآخرة على الدنيا الفانية، فقد ضحَّى ـ رضي الله عنه ـ بكل ما يملك في سبيل الله ورسوله ﷺ، واللحاق بالمسلمين في المدينة.

فإنه لما خرج صهيب ـ رضي الله عنه ـ مهاجرًا تبعه أهل مكة يريدون منعه، فأخرج أربعين سهمًا من كنانته، وقال:" يا معشر قريش، لقد علمتم ـ والله ـ أني من أرمى الناس وأحكمهم إصابة، ووالله لا تَصِلُون إليَّ حتى أضع في كل رجل منكم سهمًا، ثم أصيرُ بعدُ إلى السيف ".

قالوا: "لقد أتيتنا في مكة صعلوكًا فقيرًا فاغتنيت، وبلغت ما بلغت". فقال : " أرأيتم إن تركت لكم مالي، أتخلُّون سبيلي؟"

قالوا: " نعم" فدلَّهم على موضع ماله في مكة، فمضوا وأخذو المال، وتركوه يهاجر ".

فلما رآه النبي ـ ﷺ ـ مقبلاً، هشَّ له وبشَّ، وقال: « **ربح البيعُ أبا يحيى، ربح البيعُ أبا يحيى** » وكررها ثلاثًا، أجل، لقد اشترى صُهيبٌ نفسه المؤمنة ابتغاء مرضات الله بكلِّ ثروته وجميع ما يملك، ولم يأسف على ذهاب المال، ما دام بذله ابتغاء مرضاة الله وفي سبيل الله.

هِجرة ضَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه

لم تكن الهجرة أمرًا هينًا على المسلمين، فلقد تمت في أوضاع صعبة، وتطلبت تضحيات كبيرة، وكانت تمحيصًا لإيمان المؤمنين، واختبارًا لقوة عقيدتهم، وقد قَدَّم المسلمون بهجرتهم دروسًا عظيمة في التضحية، حيث تركوا ديارهم، وأموالهم، وما يملكون طاعة لله ولرسوله، ورغبة فيما عنده، وكان ضَمُرَة بن جندب - رضي الله عنه - حين هاجر الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون شيخًا كبيرًا أنهكه المرض، إلا أن هذا العذر لم يمنعه من محاولة الهجرة واللحاق بالنبي صلى الله عليه وسلم، والفرار بدينه، فعن ابن عباس - رضي الله عنه - قال: " خرج ضَمُرة بن جندب مهاجرًا فقال لأهله :" احملوني، فأخرجوني من أرض المشركين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم "، فمات في الطريق قبل أن يَصِلَ إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فبلغ خبره أصحاب النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا لو توفي بالمدينة لكان أتم أجرًا، وقال المشركون: "وهم يضحكون ما أدرك هذا ما طلب"، فأنزل الله سبحانه وتعالى : ﴿وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾

النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة

كان أهل المدينة ينتظرون وصول النبي - ﷺ - ويترقبون قدومه، فقد كانوا يخرجون كل يوم من بيوتهم حتى يرتفع النهار، فإذا اشتدَّ عليهم الحرُّ عادوا إلى بيوتهم، حتى إذا كان اليوم الذي قَدِمَ فيه، انتظروه حتى إذا لم يكن هناك ظل يستظلون به عادوا، وقدم رسول الله - ﷺ - وقد دخلوا بيوتهم، فَبَصُرَ به يهودي فناداهم، فأقبلوا إليه فرحين مرحبين، ونزل في قباء على مشارف المدينة، ومكث هناك أربع عشرة ليلة، وخلالها وصل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - بعد أن ردَّ الأمانات التي كانت عند الرسول - ﷺ - إلى أهلها .

سار رسول الله - ﷺ - إلى المدينة، وقد حاول كثيرٌ من الأنصار أن يفوزوا برسول الله - ﷺ - ويشرفوا بضيافته عندهم. لكنه نزل عند أبي أيوب الأنصاري، ومكث عنده حتى انتهى من بناء حجرات زوجاته بجانب المسجد.

ولقد كانت الهجرة إلى المدينة واجبةٌ على كل من أسلم، ولم تنقطع إلا بفتح مكة، والحكمة في وجوبها ؛ من أجل أن يَسْلَمَ من أذى من يؤذيه من الكفار، ولكي لا يفتنوه عن دينه، فلما فتح الله مكة ودخل الناس في دين الله أفواجًا، سقط فرض الهجرة إلى المدينة ، قال رسول الله ﷺ : ((**لا هِجْرَة بعدَ الفَتحِ، ولكن جِهَادٌ ونية، وإذا اسْتُنْفِرتُم فانْفِروا**)). لكن الهجرة باقية الحكم في حق من أسلَمَ في دار الكفر ولم يأمن على دينه، مع قدرته على الخروج منها.

بناء مسجد الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

استقر رسول الله ـ ﷺ ـ في بيت أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه ، ثم أمر ببناء مسجد في أرض كانت ملكًا لغلامين يتيمين من بني النجار، اشتراها منهما، وأمر بتسويتها، وقطع نخيلها، وشارك رسول الله ـ ﷺ ـ المسلمين في بناء المسجد، وكان المسلمون فرحين ببناء المسجد، وبمشاركة النبي ـ ﷺ ـ لهم، فكانوا يرتجزون في أثناء العمل قائلين:

اللهم لا خيرَ إلا خير الآخرة

فاغفر اللهم للأنصار والمهاجرة

عن أبي سعيد الخدري ـ رضي الله عنه ـ قال: " كنا نحمل اللبن في بناء المسجد لَبِنَةً لَبِنَة، وعمار يحمل لبنتين لبنتين، فرآه النبي ـ ﷺ ـ فجعل ينفض التراب عنه، ثم يقول: ((**ويح عمار تقتُلُهُ الفئةُ الباغيةُ، يدعوهم إلى الجنَّة، ويدعونه إلى النار**)).

وتم بناء المسجد باللبن، وسقفه من الجريد، وعُمُده من خشب النخل، ووضع رسول الله ـ ﷺ ـ جذع نخلة يخطب عليها، ثم استبدله فيما بعد بمنبر مرتفع أهدته إليه امرأة من الأنصار، فلما رقى عليه رسول الله ـ ﷺ ـ حنَّ ذلك الجذع، فنزل إليه رسول الله ـ ﷺ ـ فضمه إليه، فجعل يئن أنين الصبي حتى سكن.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

لما قَدِمَ النبي ـ ﷺ ـ المدينة آخى بين المهاجرين والأنصار وكانوا تسعين رجلًا، نصفُهم من المهاجرين، ونصفُهم من الأنصار، آخى بينهم على المساواة، والتوارث بعد الموت، فلما أنزل الله عزَّ وجلّ : ﴿ وَأُوْلُواْ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ ردَّ التوارث، وبقيَّ عَقدُ الأخوَّة.

ولقد تسابق الأنصار في إيواء إخوانهم المهاجرين، وأكرموهم، وآثروهم على أنفسهم، وعرضوا عليهم أن يقاسموهم أموالهم ومزارعهم، وقد أثنى اللهّ عليهم في قوله : ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وكان لهذه التضحية أثرٌ بالغٌ في نفوس المهاجرين، حتى إنهم قالوا: "يا رسول الله ما رأينا قومًا قدمنا عليهم أحسن مواساة في قليل، ولا أحسن بذلا في كثير منهم، لقد حسبنا أن يذهبوا بالأجر كلّه ".

ولقد أثنى رسول الله ـ ﷺ ـ على الأنصار، فقال: ((**لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا أو شِعبًا لسلكت وادي الأنصار و شِعبهم**)).

أهلُ الصُفَّة

الصفة: مكان في مؤخرة المسجد النبوي، في الركن الشمالي الشرقي منه، أمر به ﷺ فظُلل بجريد النخل، وأُطلق عليه اسم الصفة.

وقد أُعدت الصفة لنزول الغرباء العزاب من المهاجرين والوافدين الذين لا مأوى لهم ولا أهل، فكان يَقِلُ عددهم حينًا، ويكثر أحيانًا، وكان النبي ﷺ يتعهدهم، ويزورهم، ويتفقد أحوالهم، ويكثر مجالستهم.

وكان الصحابة رضي الله عنهم يأخذ الواحد منهم الاثنين والثلاثة من أهل الصفة فيطعمهم في بيته، كما كانوا يأتون بأقناء الرطب ويعلقونها في السقف لأهل الصفة حتى يأكلوا منها.

وكان جُلُّ عمل أهل الصفة تعلم القرآن وأحكام الدين من رسول الله ﷺ، فإذا جاءت غزوة، خرج القادر منهم للجهاد فيها.

ومن أشهر أهل الصفة المنقطعين فيها أبو هريرة رضي الله عنه ـ وهذا الانقطاع مكَّنه من تلقي الكثير من أحاديث الرسول ﷺ ـ كما قال عن نفسه حين سمع الناس يقولون: "أكثر أبو هريرة" قال: "إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ ـ بشبع بطنه، ويحضر ما لا يحضرون، ويحفظ ما لا يحفظون".

تحويل القبلة

كان النبي ـ ﷺ ـ في مكة يتجه في صلاته إلى بيت المقدس، جاعلًا الكعبة بينه وبين بيت المقدس، ولما هاجر إلى المدينة استمر في صلاته إلى جهة بيت المقدس، وظل المسلمون على ذلك ستة عشر شهرًا . ولقد كان النبي ـ ﷺ ـ حريصًا على أن يتوجه في صلاته إلى الكعبة، قِبْلَةِ إبراهيم عليه السلام، ويتميز عن اليهود الذين كانوا يرون أن المسلمين يتابعونهم في قبلتهم، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ يسأل الله أن يحول قبلته إلى الكعبة، فاستجاب الله لرغبة نبيه ﷺ، فنزل قوله سبحانه: ﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ﴾

وأول صلاة صلاها رسول الله ـ ﷺ ـ بعد تحويل القبلة، كانت صلاة الظهر في بني سلمة، ثم صلى العصر ـ في المسجد النبوي. وقد أزعج تغيير القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة اليهود، فأخذوا ـ هم والمرجفون من المنافقين ـ ينشرون دعايات مغرضة عن صحة هذا الدين، وصحة ما سبق من الصلوات التي صلاها المسلمون، وخاف بعض المسلمين من أن تكون صلاتهم السابقة إلى بيت المقدس باطلة، فأنزل الله : ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ ﴾

يهود المدينة

سكن اليهود المدينة انتظارًا لمبعث نبي يجدون صفته، وصفة بلده، ومكان مبعثه في التوراة، وكانوا ينتظرون ويتمنون أن يكون هذا النبي منهم، فلما بُعث النبي، ورأوا أنه من العرب، تنكروا له، وتآمروا عليه، وحرضوا المشركين على قتاله، وحاولوا اغتياله حسدًا من عند أنفسهم.

وحينما جاء النبي - ﷺ - إلى المدينة كان يسكن فيها ثلاث قبائل من اليهود هم: بنو قينقاع، وبنو النضير، وبنو قريظة، وكانوا من القوة والمنعة بمكان، فقد كان اليهود يسيطرون على القوة الاقتصادية بالمدينة وعلى الماء كذلك . وقد بذل النبي - ﷺ - جهودًا مضنية في دعوتهم إلى الإسلام، ولكنهم رفضوا الحق جحودًا واستكبارًا، مع علمهم التام بصدق رسالته، وصحة ما جاء به، ولم يُسلم منهم إلا عدد قليل جدًا.

وبعد أن استقر النبي - ﷺ - في المدينة كتب كتابًا وادَعَ فيه اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم، ووادعهم فيها على ألا يعينوا عليه أحدًا، وأنه إن دهمه بها عدو نصروه . وكتب وثيقة نظَّم فيها العلاقة بين أهل المدينة، وبيَّن فيها التزامات كل طرف، وحقوقِهم، وواجِبَاتهم، وهو ما عُرف بالصحيفة.

إسلام حَبْرُ اليهود

عن أنس رضي الله عنه ، أن عبدالله بن سلام بلغه مقدم النبي ـ ﷺ ـ المدينة فأتاه يسأله عن أشياء، قال : "إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي : ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أشي شيء ينزع الولد إلى أبيه ؟ ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟"

فقال رسول الله ﷺ: ((**خبرني بهن جبريل آنفًا**)) قال عبدالله: " ذاك عدو اليهود من الملائكة ." قال رسول الله : ((**أما أول أشراط الساعة، فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة، فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد، فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**)) .

قال: "أشهدُ أنكَ رسولُ الله " ثم قال: " يا رسولَ الله، إن اليهود قوم بُهتٌ، إنْ علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني عندك " فجاءت اليهود ودخل عبدالله البيت، فقال النبي ﷺ: ((**أي رجل فيكم عبدالله بن سلام** ؟)) قالوا : "أعلمُنَا وابن أعلَمِنَا، وأخيرُنَا وابن أخيَرِنا ." فقال النبي ﷺ: ((**أفرأيتم إن أسلم عبدالله بن سلام** ؟)) قالوا : " أعاذه الله من ذلك " فخرج عبدالله إليهم فقال: " أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ". قالوا : "شرُّنا وابن شرِّنا، ووقعوا فيه)).

قريش تهدد المسلمين في المدينة

توافَدَ مسلمو مكة إلى المدينة، فهاجر كل من كان قادرًا على الهجرة، وتركوا أموالهم، وفارقوا ديارهم، وأهليهم، استجابة لله ولرسوله، وطمعًا في موعود الله، حيث وعد الله المهاجرين أجرًا عظيمًا، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾﴾

واستقر المهاجرون في المدينة، بعد أن واجهوا عند هجرتهم الكثير من المصاعب والمتاعب، إلا أن قريشًا لم تتوقف عن محاربة المسلمين حتى بعد هجرتهم إلى المدينة، وحيث كان لقريش صلة بيهود المدينة، فقد كانوا يحاولون عن طريقهم إثارة الاضطراب والفرقة بين المسلمين، كما كانت قريش أيضًا تهدد المسلمين وتتوعدهم بالقضاء عليهم، وهكذا أحاط الخطر بالمسلمين من الداخل والخارج، حتى إنَّ الصحابة لم يكونوا يبيتون إلا ومعهم السلاح. وفي هذه الأوضاع الشديدة أنزل الله الإذن بالقتال ؛ فأخذ الرسول ـ ﷺ ـ يرتب البعوث العسكرية لاستكشاف تحركات العدو، وكذلك التعرض لقوافلهم التجارية لتخويفهم وإشعارهم بقوة المسلمين، حتى يسالموا ويتركوا لهم الحرية في نشر الإسلام والعمل به، كما قام النبي ـ ﷺ ـ بعقد المواثيق والتحالف مع بعض القبائل.

قافلة قريش

حين اضطُر المسلمون إلى الهجرة من مكة إلى المدينة بعد أن ضيق عليهم الكفار وآذوهم، فهاجروا وتركوا أموالهم، ومساكنهم، وما يملكون ؛ فاستولت عليها قريش ظلمًا وعدوانًا .

ولما استقر المسلمون في المدينة، وجاء الإذن بالقتال، أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ عددًا من السرايا لاعتراض قوافل قريش التجارية، ولإرهاب مشركي مكة كي يكفوا عن تهديد المسلمين .

وفي أحد الأيام عقد الرسول ـ ﷺ ـ العزم على اعتراض إحدى قوافل قريش التجارية القادمة من الشام، فخرج بثلاثمائة وتسعة عشر رجلًا، منهم مئة من المهاجرين، وبقيتهم من الأنصار، ولم يكن معهم سوى فرسين وسبعين بعيرًا فقط. وكانت قافلة قريش مكونة من ألف بعير، وكان يقودها أبو سفيان ومعه أربعون رجلًا، لكن أبا سفيان علم بخروج المسلمين ؛ فأرسل إلى مكة يخبرهم بالأمر، ويطلب إليهم المساعدة، وغيَّر طريقه وذهب من طريق آخر، فلم يظفر بهم المسلمون، أما قريشٌ فقد خرجوا بجيش قِوامه ألف مقاتل، إلا أنه أتاهم رسولٌ من أبي سفيان يخبرهم بنجاة القافلة، ويطلب إليهم الرجوع إلى مكة، فرفض أبو جهل العودة وأصر على مواصلة السير وقتال المسلمين .

معركة بدر الكبرى

لما علم الرسول ـ ﷺ ـ بقدوم جيش قريش، استشار أصحابه رضي الله عنهم ، فقد كان خروجهم لاعتراض القافلة التجارية، ولم يستعدوا لملاقاة جيش بهذا العدد والعدة، فاتفق رأي المهاجرين والأنصار على لقاء الكفار ومقاتلتهم، وساروا حتى بلغوا منطقة بدر فعسكروا هناك. وأعطى رسول الله ـ ﷺ ـ اللواء لمصعب بن عمير رضي الله عنه . وظل رسول الله ـ ﷺ ـ طوال الليل يصلي ويدعو، ويلحُّ على ربه أن ينجز له ما وعده من نصر المؤمنين .

وفي صباح اليوم السابع عشر من رمضان، للسنة الثانية من الهجرة، بدأت المعركة بخروج عتبة بن ربيعة، وابنه الوليد، وأخيه شيبة للمبارزة، فخرج إليهم حمزة، وعلي، وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم ، وقد قُتل المشركون الثلاثة.

ثم التحم الفريقان وتقاتلوا قتالًا شديدًا، وقاتل رسول الله ـ ﷺ ـ مع أصحابه، فكان أقرب الناس إلى العدو، وكان المسلمون يلوذون به، وانتهت المعركة بانتصار المسلمين، وقُتل منهم أربعة عشر شهيدًا. أما المشركون فقد قُتل منهم سبعون رجلاً وأُسر سبعونَ آخرون.

وقد قُتل في هذه المعركة كثيرٌ من صناديد الشرك وأعداء الإسلام، وعلى رأسهم أبو جهل فرعون هذه الأمة، وأمية بن خلف، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة وغيرهم.

من مواقف النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ في بدر

لم يكن مع المسلمين حين خرجوا سوى سبعين بعيرًا يتعاقبونها، وكان رسول الله ـ ﷺ ـ وعلي بن أبي طالب، وأبو لبابة يتعاقبون على بعيرٍ واحدٍ، فأرادا أن يؤثراه بالركوب، فقال ﷺ: ((**ما أنتما بأقوى مني، وما أنا بأغنى عن الأجر منكما**)) . فضرب رسول الله ـ ﷺ ـ مثلًا حيًّا على تواضعه، وحرصه على تحمل الشدائد مع رعيته .

وضرب النبي ـ ﷺ ـ مثلاً رائعًا في التضحية حين قدَّم أقرب الناس إليه للمبارزة، وهم: عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبدالمطلب، وعلي بن أبي طالب.

واستطاع النبي ـ ﷺ ـ أن يحدد عدد أفراد جيش قريش من خلال كلام الأسيرين قبل المعركة، حين سألهما عن عدد القوم، فقالا: " لا ندري " قال: " كم ينحرون كل يوم؟ " فقالا: " يومًا تسعًا، ويومًا عشرًا " فقال: "القوم بين التسعمائة والألف".

وبرزت مراعاةُ الرسول ـ ﷺ ـ لأوضاع جنده، فقد عذر عثمان ـ رضي الله عنه ـ لحالة زوجته المريضة، وعذر حذيفة بن اليمان ووالده ـ رضي الله عنهما ـ وفاءً بوعد قطعوه بعدم المشاركة في قتال كفَّار قريش.

وفي أثناء المعركة توفيت زوجة عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ رقية بنت الرسول ﷺ، وبعد المعركة زوَّجه رسول الله ـ ﷺ ـ ابنته الثانية أم كلثوم رضي الله عنها ؛ ولهذا فهو يُلقَّب بذي النورين، لأنه تزوج اثنتين من بنات الرسول ﷺ.

دروس وعبر من غزوة بدر (١)

غزوة بدر مليئة بالعظات والعبر التي يحسن الوقوف عندها، فمن ذلك ما جاءت به من تأكيد مبدأ الشورى، باعتباره مبدأً من مبادئ الشريعة وأصلاً من أصول الحكم، فرسول الله ﷺ، وهو المؤيَّد بالوحي، استشار أصحابه في تلك الغزوة أربع مرَّات، فاستشارهم حين الخروج لملاحقة العير، واستشارهم حينما علم بخروج قريشٍ، واستشارهم عن أفضل المنازل في بدر، واستشارهم في موضوع الأسرى .

كما تبيَّن من خلال هذه الغزوة، أن النصر من عند الله، وأن القوة والكثرة ليست وحدها مفتاحُ النصر، ولو كانت كذلك لكان النصر من نصيب المشركين الذين فاقوا الصحابة عددًا وعُدَّة . كما أن الدعاء واللجوء إلى الله ـ سبحانه وتعالى ـ من أبرز أسباب النصر والتأييد، ويظهر ذلك في موقف النبي ﷺ - في هذه المعركة وإلحاحه في الدعاء حتى سقط عنه رداؤه.

ومما يُستفاد من هذه الغزوة، العدل والتواضع اللذَيْنِ يتصف بهما رسول الله ﷺ، فهو يسمح لأحد أصحابه بأن يقتص منه حين ظنَّ بأنهُ قد أوجعه حين لكزه وهو يسوي الصفوف.

دروس وعبر من غزوة بدر (٢)

تجلت في غزوة بدر العديد من المشاهد التي تُظهر عقيدة الولاء والبراء، وتُبيِّن أن رابطة الدين فوق رابطة الأخوَّة والنسب، ويتجلَّى ذلك في موقف أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ الذي أظهر استعداده لقتل ولده، وموقف مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ حينما قال للذي أسر أخيه : " شُدَّ يديك به ؛ فإن أُمَّه ذاتُ متاع، لعلها تفديه منك "، فقال أخوه : " يا أخي هذه وصاتك بي ؟ "، فردَّ عليه : " إنه ـ أي الذي أسرك ـ أخي دونك " وقول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في قضية الأسرى : " ولكني أرى أن تمكنني من فلان ـ قريباً لعمر ـ فأضربُ عُنُقَه، وتُمكن عليًّا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان ـ أخيه ـ فيضرب عنقه ؛ حتى يعلم اللهُ أنه ليست في قلوبنا هوادة للمشركين" .

ويتجلى ذلك أيضًا في إصرار النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على أخذ الفدية كاملة من عمِّه العباس، وهذا درسٌ آخر في عدم المحاباة أو المجاملة لأحدٍ كائنًا ما كان، إذا تعلَّقت القضيةُ بالدين.

مصرع أبي جهل، فرعون هذه الأمة

عن عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ قال: " إني لفي الصف يوم بدر إذ التفتُّ، فإذا عن يمينى وعن يساري فتَيَانِ حديثا السِّن، فكأني لم آمن بمكانهما، إذ قال لي أحُدهما سرًّا من صاحبه :" يا عمِّ، أرني أبا جهل " فقلت: " يابن أخي، فما تصنع به؟ " قال: " أُخبِرتُ أنه يسبُّ رسول الله ﷺ، فوالذي نفسي بيده لئن رأيته لا يُفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منا " فتعجبت لذلك، قال : " وغمزني الآخر، فقال لي مثلها، فلم أنشب أن نظرت إلى أبي جهل يجول في الناس، فقلت: ألا تريان؟ هذا صاحبكما الذي تسألاني عنه، قال: فابتدراه فضرباه حتى قتلاه، ثم انصرفا إلى رسول الله ﷺ، فقال: ((**أيكما قتله؟**)) فقال كل واحد منهما: أنا قتلته، قال: ((**هل مسحتما سيفيكما** ؟)) فقالا : لا . فنظر رسول الله ـ ﷺ ـ إلى السيفين فقال: ((**كلاكما قتله**)) ، وقضى رسول الله ـ ﷺ ـ بسَلَبِه لمُعاذ بن عمرو بن الجموح، والرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح، ومُعَوِّذ ابن عفراء.

ولما انتهت المعركة قال رسول الله ﷺ : ((**من ينظر ما صنع أبو جهل** ؟)) فتفرق الناس في طلبه، فوجده عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ وهو في آخر رمق، فوضع رجله على عنقه، واحتز رأسه وجاء به إلى رسول الله ﷺ .

أُسَارى بدر

عاد المسلمون من المعركة إلى المدينة فرحين بنصر الله لهم، وتلقى الناس في المدينة خبر هزيمة قريش بالفرح والابتهاج، والحذر ألا يكون الأمر صحيحًا، يقول أسامة بن زيد رضي الله عنه : " فوالله ما صَدَّقتُ، حتى رأينا الأسارى ".

وصل الجيش المدينة ومعهم الأسرى والغنائم، واستشار رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ في الأسرى، وهم سبعون، فأشار أبو بكر الصديق رضي الله عنه : بأن يؤخذ منهم فدية، يتقوى بها المسلمون، ويُطلَقُ سراحُهُم لعل الله يهديهم للإسلام . فقال عمر رضي الله عنه : " لا والله، ما أرى ذلك، ولكني أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديد الشرك ".

ومالَ النبيُّ ـ ﷺ ـ إلى رأي أبي بكر، فقبل منهم الفداء، وكان ينادي بهم على قدر أموالهم من أربعة آلاف درهم إلى ألف درهم .

ومن لم يستطع افتداء نفسه وكان يحسن القراءة والكتابة كانت فديته أن يُعلم عشرة من أبناء المسلمين. ومنَّ الرسول ـ ﷺ ـ على بعض الأسرى، ولم يُقتل من الأسرى إلا النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط، وذلك لأنهما كانا من أشد الناس إيذاءً للمسلمين في مكة، وقد ظهرت نهاية الجبروت والشجاعة الزائفة، حين قال عقبة بن أبي معيط للرسول ـ ﷺ ـ مسترحمًا : " من للصبية يا رسول الله ؟" فأجابه : ((**النار**)).

مؤامرة لقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

بعد هزيمة قريش في معركة بدر، جلس عمير بن وهب مع صفوان ابن أمية، وكان عمير بن وهب شيطانًا من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه، ويلقون منه عناءً وهو بمكة، وكان ابنه وهب بن عمير في أُسارى بدر.

فذكر صفوان قتلاهم وقال : "والله ما في العيش بعدهم خير". قال له عمير : "صدقت، أما والله لولا دين علي ليس عندي قضاؤه، وعيالٌ أخشى عليهم الضيعة بعدي، لركبت إلى محمد حتى أقتله ".

فاغتنمها صفوان بن أمية فقال: " عليَّ دَينُك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي أواسيهم ما بقوا". فقال له عمير: "فاكتم علي شأني وشأنك " قال: " سأفعل ".

ثم قام عمير إلى سيفه فشحذه بالسُّم، ثم انطلق حتى قَدِمَ المدينة، فبينما عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ في نفر من المسلمين يتحدثون، إذا رأى عمير بن وهب وقد أناخ راحلته على باب المسجد متوشحًا السيف فقال : "هذا عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر ".

عُمير بن وهبٍ يُعلن إسلامه

لما رأى عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ عمير بن وهب قادمًا نحو مسجد رسول الله ﷺ، دخل على رسول الله ﷺ، فقال : " يا نبي الله هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحًا سيفه ". قال: ((**فأدخِلهُ عليَّ**))، فدخل به على رسول الله ﷺ، فلما رآه رسول الله وعمر ممسك به قال : ((**أرسله يا عمر**)). ادْنُ يا عمير . فدنا ثم قال: ((**ما جاء بك يا عمير ؟**)) قال : " جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه ".

قال ﷺ : ((**فما بال السيف في عنقك ؟**)) قال : " قبحها الله من سيوف وهل أغنت شيئًا **!**" . قال: ((**اصدقني ما الذي جئت له ؟**)) قال : " ما جئت إلا لذلك ".

قال : ((**بل قعدت أنت وصفوان بن أمية، فذكرتما قتلى بدر، ثم قلتَ : لولا دين علي وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمَّل لك صفوان بن أمية بدينك وعيالك، على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ذلك**)) .

فقال عمير : " أشهد أنك رسول الله، قد كنا يا رسول الله نُكذِّبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله . فالحمد لله الذي هداني للإسلام وساقني هذا المساق ". ثم شهد شهادة الحق .

إجلاء بني قينقاع من المدينة

بعد انتصار المسلمين في معركة بدر، جمع رسول الله ـ ﷺ ـ يهود في سوق بني قينقاع، حين قدم المدينة ، فقال يا معشر يهود أسلموا قبل أن يصيبكم الله بمثل ما أصاب به قريشًا، فقالوا له : " يا محمد لا يَغُرنك من نفسك أنك قتلت نفرًا من قريش، كانوا أغمارًا لا يعرفون القتال، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس وأنك لم تلق مثلنا ".

فأنزل الله : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾ ﴾ [آل عمران: ١٢].

وبعد ذلك حدث أن قَدِمَت امرأةٌ مسلمةٌ بجلب لها فباعته في سوق بني قينقاع، ثم جلست إلى صائغ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها، فأبت، فعَمِد الصائغ إلى طرف ثوبها فعقده ـ وهي غافلة ـ فلما قامت انكشفت ؛ فصاحت مستنجدة، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله، فتواثب اليهود على المسلم فقتلوه، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين فغضب المسلمون، ووقع القتالُ بينهم وبين بني قينقاع .

وبهذا نقض اليهود العهد، فحاصرهم النبيُّ ـ ﷺ ـ نصف شهر حتى نزلوا على حكمه فأجلاهم عن المدينة إلى أذرعات في الشام، وكان ذلك في شهر شوال من السنة الثانية.

بين بدر وأحد

من الأحداث والغزوات التي حصلت بعد غزوة بدر:

غزوة قَرْقَرَةِ الكُدْر: حيث جمعت بنو سليم وقطفان جموعًا بقرقرة الكدر، وهو ماء لبني سليم، يريدون غزو المسلمين، فسار إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ ودهمهم، ففروا لما علموا بقدوم المسلمين، ولم يجد المسلمون سوى الإبل، وبقي الرسول ـ ﷺ ـ هناك ثلاثة أيام، ثم عاد بدون قتال.

غزوة السَّويق: أرادت قريش الانتقام من هزيمتها في بدر، فسار أبو سفيان بمئتي فارس، وهجم ناحية من أطراف المدينة، فقتل رجلين، وأحرق نخلًا، فانبعث إليهم المسلمون، ففروا، وأخذوا يُلقون ما معهم من السويق حتى يتخففوا من حمله كي يسرعوا في الفرار.

غزوة ذي أَمر: بعد شهر من غزوة ذات السويق، تجمعت قبائل غطفان تريد غزو المسلمين، فخرج إليهم رسول الله ، ففروا ولم يحصل قتال . وأقام رسول الله ـ ﷺ ـ طيلة شهر صفر في ديارهم، ثم عاد إلى المدينة.

غزوة القَرَدَة: حاولت قريش إحداث طريق جديد للتجارة للإفلات من حصار المسلمين لهم، فخرج أبو سفيان في قافلة عبر نجد تجاه العراق، فأرسل إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ زيد بن حارثة ـ رضي الله عنه ـ بمئة رجل، ففر المشركون، وتركوا القافلة غنيمة للمسلمين.

الخروج إلى أحد

أرادت قريشٌ أن تنتقم لقتلاها في بدر، وتنقذ طرق تجارتها إلى الشام من سيطرة المسلمين، وتعيد مكانتها وسالف مجدها بين قبائل العرب الذي تزعزع بسبب هزيمتها في معركة بدر، فأخذت تُعد العُدَّةَ لغزو المسلمين.

ولما علم النبي - ﷺ - بخروج جيش المشركين، اجتمع بأصحابه، وشاورهم بين الخروج من المدينة للقاء العدو، أو البقاء فيها والتحصُّن بداخلها، فاختار بعضهم البقاء في المدينة، ومالَ النبي - ﷺ - إلى هذا الرأي، بينما اختار الخروجَ إلى العدوِّ الرجالُ المتحمِّسون الذين حُرموا من شهود يوم بدر، وتاقت نفوسهم إلى الجهاد في سبيل الله، وطمعوا في نيل الشهادة، فألـحُّوا على رسول الله - ﷺ - أن يخرج لقتالهم، وقالوا له : " يا رسول الله، كنَّا نتمنَّى هذا اليوم، وندعو الله، فقد ساقه إلينا وقَرُب المسير، اخرج بنا إلى أعدائنا، لا يرون أنا جبنَّا عن لقائهم " وأمام هذا الإلحاح دخل النبي - ﷺ - بيته ولبس عُدَّة الحرب .

ولما دخل النبي - ﷺ - بيته، تلاوم القوم ورأوا أنهم أكرهوا النبي - ﷺ - على أمر لا يريده، فأرسلوا حمزة بن عبدالمطلب يخبره بأن القوم قد ندموا، وأنهم يأتمرون بأمره، فقال : ((**ما ينبغي لنبي إذا لبس لأمته أن يضعها، حتى يحكم اللهُ بينه وبين عدوه**)) .

الطريق إلى أحد

انطلق النبي ـ ﷺ ـ بجيشه نحو أحد، ومعه قُرابة ألف رجل، وفي الطريق انخذل المنافق عبدالله بن أُبي بن سلول، وانسحب بِثُلُثِ الجيش، وكاد هذا الموقفُ أن يؤثر في المؤمنين من بني سلمة وبني حارثة فيتبعوهم، ولكن الله عصمهم بإيمانهم، وفيهم نزلت : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾

وصل المسلمون إلى أُحد وعسكروا هناك، واختار النبي ـ ﷺ ـ أرض المعركة، وقام بتقسيم الجيش إلى ثلاث كتائب: كتيبة المهاجرين بقيادة مصعب بن عمير رضي الله عنه، وكتيبة الأوس بقيادة أُسيد بن حضير رضي الله عنه، وكتيبة الخزرج بقيادة الحُباب بن المنذر رضي الله عنه، وردَّ النبي ـ ﷺ ـ صغار السنِّ ومنعهم من المشاركة، وبلغوا أربعة عشر غلامًا كما يذكر علماء السيرة، ولم يستثن من الصغار سوى رافع بن خديج ـ رضي الله عنه ـ لبراعته في الرمي، وسمرة بن جندب ـ رضي الله عنه ـ لقوّته الجسديّة .

ثم اختار النبي ـ ﷺ ـ من أصحابه خمسين راميًا، وأمَّر عليهم عبدالله بن جُبير رضي الله عنه، وجعلهم على جبل يقابل جبل أُحد، وقال لهم : ((**إن رأيتمونا تَخْطفُنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم، وإن رأيتمونا هَزَمْنا القوم فلا تبرحوا حتى أُرسل إليكم، وانضحوا عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا، إنا لن نزال غالبين ما ثبتم مكانكم**))، ثم تقدّم النبي ـ ﷺ ـ إلى الصفوف فسوّاها، وقال : ((**لا يُـقاتلنَّ أحدٌ حتى نأمره بالقتال**)).

غزوة أحد

وصل أبو سفيان بن حرب بجيشه البالغ ثلاثة آلاف رجل إلى أرض المعركة، وتقابل مع جيش المسلمين البالغ سبع مئة رجل، والتحم الصفان، وبدأت المعركة، واشتد القتال، فبدأت علامات النصر للمسلمين، وانهزم الكفار وفرُّوا هاربين جهة مكة، ولحق بهم المسلمون يطاردونهم. ولما رأى الرماة على الجبل هزيمة المشركين وفرارهم، نزل منهم أربعون رجلًا لجمع الغنائم، ولم يستمعوا لتحذير قائدهم عبدالله بن جبير، الذي حذَّرهم من خطورة مخالفة أمر الرسول .

لاحظ خالد بن الوليد نزول الرماة من على الجبل، فالتف على المسلمين من الخلف، وقتل من بقي من الرماة، وهجم على جيش المسلمين، فمالت كفَّة المشركين، وأخذ المسلمون يقاتلون دون تخطيط، وترك بعضهم القتال، وفرَّ آخرون، وكان قد أُشيع أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد قتل، وتراجع بعض المسلمين، ولم يصمد إلا رسول الله ـ ﷺ ـ وعدد قليلٌ من أصحابه، وجرح الرسول ـ ﷺ ـ جراحات متعددة، وقُتل في هذه المعركة من المسلمين سبعون رجلًا، منهم حمزةُ عمُّ النبي ﷺ، وقُتل من المشركين اثنان وعشرون رجلًا، وكان ذلك في يوم السبت السابع من شوال من السنة الثالثة للهجرة .

ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحد

لما انتبه خالد بن الوليد لنزول الرماة من على الجبل، انقض على ظهور المسلمين ؛ وفقد المسلمون مواقعهم وبدؤوا يقاتلون دون تخطيط، وانقطع اتصالهم بقائدهم، وسُمعَ صوتٌ ينادي: " إن محمدًا قد قتل " ففر جمعٌ من المسلمين، وألقى بعضهم السلاح، وثبت آخرون، وصاح أنسُ بن النَّضِر - رضي الله عنه - بالمسلمين قائلاً: " يا قومِ إن كان محمدٌ قد قتل، فإن ربَّ محمدٍ لم يقتل، فقاتلوا على ما قاتل عليه محمد " ثم شد بسيفه وقاتل حتى استشهد.

وبالرغم مما جرى فقد ظل الرسول - صلى الله عليه وسلم - محافظًا على رَباطة جأشه، رغم استشهاد خِيْرَة رجاله، وقد حاول المشركون الوصول إليه صلى الله عليه وسلم، لكنه بقي صامدًا مع تسعة من أصحابه، الذين استبسلوا في الدفاع عنه، ووقف أبو دجانة - رضي الله عنه - يرد السهام عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بظهره، وقاتل سعد بن أبي وقاص - رضي الله عنه - بين يدي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وكان يناوله النبال ويقول له: ((**ارمِ يا سعد، فداك أبي وأمي**)).

وجاء أُبَيٌّ بن خلف يريد قتل النبي - صلى الله عليه وسلم - فتناول رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حربة فطعنه في عنقه طعنة تدحرج منها عن فرسه.

وعلى الرغم من استبسال الصحابة - رضي الله عنهم - في الدفاع عن الرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد أصيب إصابات عديدة، فقد كسرت رباعيته، وشُج في وجهه، فأخذ يمسح الدم عن وجهه الكريم وهو يقول: ((**كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم، وهو يدعوهم إلى الإسلام**)).

مقتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه

أبلى حمزة بن عبدالمطلب - رضي الله عنه - يوم أحد بلاءً حسنًا، وقاتل قتالًا شديدًا، ودخل في صفوف المشركين حتى قتل أرطأة بن عبد شُرَحْبِيل بن هاشم، أحد الذين كانوا يحملون لواء جيش المشركين.

وكان في جيش المشركين عبدٌ حبشي اسمه وحشي- بن حرب، وكان من أرمى الناس، جعل سيده قتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، ثمنًا لحريته من الرق، يقول وحشي: " والله إني لأنظر إلى حمزة وهو يُردي الناس بسيفه يوم أحد، إذ تقدمني إليه سِبَاع بن عبد العزى، فقال له حمزة: " هلم إلي " وضربه ضربةً ما أخطأ رأسه، يقول: "وهززت حربتي، حتى إذا رضيت منها، دفعتها عليه فوقعت أسفل بطنه، وخرجت من بين رجليه، فأقبل نحوي، ولكنه وقع، وتركته حتى إذا ما مات، أخذت حربتي، ثم تنحيت إلى العسكر ولم تكن لي بشيء حاجة غيره. وإنما قتلته لأُعتق، فلما قدمت مكة أُعتقت ".

وفي عام الفتح أسلم وحشي رضي الله عنه ، وأراد أن يقوم بعمل يُكَفِّر به قتل حمزة، يقول وحشي- رضي الله عنه : "لما خرج مسيلمة قلت لأخرجن إلى مسيلمة الكذاب لعلي أقتله فأكافئ به حمزة ". يقول: " فلما رأيت مسيلمة رميته بحربتي فوضعتها بين ثدييه حتى خرجت من بين كتفيه ".

شهداء أحد

روى البخاري رحمه الله، أن رسول الله ـ ﷺ ـ كان يجمع بين الرجلين من قتلى أحد في ثوب واحد، ثم يسأل: ((**أيهم أكثر أخذًا للقرآن ؟**)) فإذا أشير له إلى أحدهما قدَّمه في اللحد، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يصِّل عليهم، ولم يُغَسَّلوا، ودفُن الاثنان والثلاثة في قبر واحد، كما أَمَرَ أن يُدفنوا حيث صُرعوا، وأعيد من أخذ ليدفن في داخل المدينة. وبعد الدفن، صفَّ الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه، وأثنى على ربه طويلًا ودعا لهم. وقال عنهم: ((**أنا شهيد على هؤلاء يوم القيامة**)).

وقد نزل في هؤلاء الشهداء قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ ﴾

وروى مسلم رحمه الله، أن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ سئل عن هذه الآية، فقال: " أَمَا إنَّا قد سَألنا عن ذلك، فقال: ((**أرواحهم في جوف طير خضر لها قناديل معلقة بالعرش تسرح من الجنة حيث شاءت، ثم تأوي إلى تلك القناديل** ...)) .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يزور شهداء أُحد ويدعو لهم، وزارهم قبيل وفاته بأيام، ووقف على قبورهم، وسلم عليهم، ودعا لهم.

فوائد من غزوة أحد

في غزوة أحد ظهر أثر المعصية والتنازع في تخلُّفِ النصر عن الأمة، فبسبب معصية واحدة خالف فيها الرماة أمر النبي ﷺ، وبسب التنازع والاختلاف حول الغنائم، ذهب النَّصرُ عن المسلمين بعد أن لاحت بوادره.

وفيها تنبيه على خطورة إيثار الدنيا على الآخرة، وأن ذلك مما يفقد الأمة عون الله ونصره وتأييده، و أن حب الدنيا والتعلق بها قد يتسلل إلى قلوب أهل الإيمان والصلاح، وربما خفيَّ عليهم ذلك، مما يوجب على المرء أن يتفقد نفسه .

وفيها تأكيد لسنة الله في الصراع بين الحق والباطل، والهدى والضلال، فقد جرت سنة الله في رسله وأتْباعِهِم أن تكون الحرب سِجالًا بينهم وبين أعدائهم، إلا أن العاقبة للمتقين، والغلبة للمؤمنين .

وفيها أهمية الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية مع التوكل على الله والاعتماد عليه، فقد ظاهر النبي ـ ﷺ ـ بين درعين، ولبس لأْمَة الحرب، على أن الله قد عصمه من القتل.

وظهر في المعركة رحمة الله بالمؤمنين، فإنه لما أصابهم الهمُّ والحزُن على ما أصابهم، أنزل عليهم النعاس، وهم في ساحة القتال، فأذهب الله به عنهم الغم والخوف، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ﴾.

مواقف من غزوة أحد

قُتل مصعب بن عمير ـ رضي الله عنه ـ صاحب لواء رسول الله في المعركة، وكان قبل إسلامه أكثر شباب قريش ثراءً وغنى، قُتل فلم يجدوا له شيئًا يُكفنوه فيه إلا ثوبه القصير، فكانوا إذا غطوا به رأسه انكشفت رجلاه، وإذا وضعوه على رجليه ظهرت رأسه، فقال النبي ﷺ: " غطوا رأسه، واجعلوا على رجليه من الإذخر".

أما عمرو بن الجموح ـ رضي الله عنه ـ فكان رجلًا أعرج شديد العرج، وكان له أربعة بنين، فلما كان يوم أحد أرادوا منعه، وقالوا :" إن الله قد عذرك." فأتى رسول الله ـ ﷺ ـ وقال : " إن بني يريدون أن يحبسوني عن هذا الوجه والخروج معك فيه، فوالله إني لأرجو أن أطأ بعرجتي هذه الجنة! " فأذن له النبي، فقاتل حتى قتل رضي الله عنه وأرضاه .

و استُشهد في المعركة حنظلة بن أبي عامر رضي الله عنه، وكان قد تزوج ودخل بأهله في الليلة التي كانت صبيحتها يوم أحد، فلما سمع منادي رسول الله هب مسرعًا قبل أن يغتسل، فلما استشهد، قال عنه رسول الله : ((**إني رأيت الملائكة تغسل حنظلة بن أبي عامر بين السماء والأرض بماء المزن في صحاف الفضة**)). فذهبوا إليه، فإذا رأسه يقطر ماءً . ولما سُئلت زوجته جميلة بن عبدالله بن أبي عن ذلك قالت: " خرج وهو جنب لما سمع المنادي".

من ميدان أُحد

جاء أنَّ أبا دُجَانة كان يحمي الرسول ـ ﷺ ـ بظهره حتى كَثُرَ النبل فيه. ودافع قتادة بن النعمان وأبلى بين يدي رسول الله، وأصيبت عينه وتدلت على وجنته، فردها رسول الله ﷺ، فكانت أحسن عينيه.

وممن قُتل في المعركة مُخيريق، أحد أحبار يهود بني النضير، وكان قد أوصى بجميع ماله لرسول الله ﷺ، وكان غنيًا كثير الأموال من النخل، فإنه في يوم أُحد قال لقومه: " والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق " فقالوا: " إن اليوم سبت." قال: " لا سبت لكم، ثم أخذ سلاحه، وخرج يقاتل مع المسلمين." قال عنه رسول الله ﷺ: ((**مخيريق خير يهود**)).

وشارك في الغزوة اليمان، والد حذيفة بن اليمان، وثابت بن وقش وهما شيخان كبيران رفضا البقاء في الحصون مع النساء والأطفال، فخرجا طلبًا للشهادة في سبيل الله، وقتل المشركون ثابتًا، وأما اليمان ـ رضي الله عنه ـ فقد قتله المسلمون خطأً، فقد ظنُّوهُ من المشركين، فقال : لهم حذيفة: "يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين " وأدى رسول الله ـ ﷺ ـ ديته، فتصدق بها حذيفة ـ رضي الله عنه ـ على المسلمين.

و شاركت النساء في أحد في مداواة الجرحى، وسقيا المقاتلين، وكان من بينهم أم عمارة، نسيبة بنت كعب التي صمدت ودافعت عن رسول الله ـ ﷺ ـ حين انكشف المسلمون.

في أعقاب أحد

لما غادر جيش المشركين ميدان المعركة، بعث رسول الله ـ ﷺ ـ عليَّ بنَ أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ في أثرهم، ليستطلع أمرهم خوفًا من أن يُغَيِّروا وِجْهَتِهِم، ويُغِيْرُوا على المدينة، إلا أن المشركين واصلوا سيرهم إلى مكة، مكتفين بما حققوه من نصر، بعد أن يئسوا من الحصول على نصر حاسم، ولِمَا رأوا من ثبات المسلمين، وجَلَدِهِم وصبرهم على القتال .

وفي اليوم التالي للمعركة، أمر رسول الله ـ ﷺ ـ الناس بالخروج للحاق بجيش المشركين، وقال: ((**لا يخرج معنا إلا من شهد القتال في أحد**)) فأسرع المسلمون للخروج، على ما بهم من الآلام والجراح، وفيهم نزلت :

﴿ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ﴾ [آل عمران]

انطلق المسلمون وعسكروا في منطقة حمراء الأسد، وكان هدف رسول الله ـ ﷺ ـ من الخروج إرهاب المشركين، وإعادة الثقة إلى نفوس المؤمنين بعد الهزيمة التي أصابتهم، وليُثْبِتَ أمام المتربصين من الأعداء أن المسلمين ما زالوا قادرين على المواجهة والقتال . ولما سمع المشركون بخروج المسلمين سارعوا إلى الهروب إلى مكة، وكانوا قد تشاورا قبل ذلك بالعودة والهجوم على المدينة.

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه

لما انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ من صلاة الصبح من اليوم التالي لغزوة أحد، أمر بلالًا أن ينادي بالناس : "إن رسول الله يأمركم بالخروج لطلب عدوكم، ولا يخرج إلا من شهد القتال بالأمس".

فخرج سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فأمر قومه بالخروج وقد فشت فيهم الجراح، فاستجابوا وأسرعوا في الخروج، ولما سمع أُسيد بن الحضير رضي الله عنه ، وكان فيه سبع جراحات وهو يريد أن يداويها، قال: "سمعًا وطاعة " وترك علاج جراحه.

ولما سمع عبد الله بن سهل، ورافع بن سهل بن عبد الأشهل منادي رسول الله ﷺ، قال أحدهما لصاحبه:"والله إن تَرَكْنَا غزوة مع رسول الله لَغَبْن، وما عندنا دابة نركبها، فخرجا يزحفان مما بهما من الجراح، فضعف رافع فكان عبد الله يحمله على ظهره حينًا، ثم يتركه يمشي حينًا، حتى أتيا رسول الله ـ ﷺ ـ عند العِشاء فدعا لهما بخير.

وخرج رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مجروح، وفي وجهه أَثَرُ الحلقتين، ومشجوج في جبهته، ورباعيته قد شَظِيَت، وشفته قد كُلمت من باطنها، وهو متوهن منكبه الأيمن بضربة ابن قميئة، وركبتاه مجحُوشتان.

ونادى أبو قتادة بني سلمة وهم يداوون جراحهم، فوثبوا إلى السلاح، وخرج منهم أربعون جريحًا، بالطفيل بن النعمان ثلاثة عشر جرحًا، وبخراش بن الصمة عشر جراحات وبكعب بن مالك بضعة عشر جرحًا، وبقطبة بن عامر تسع جراحات.

يوم الرجيع

قَدِمَ وفدٌ من عَضَل وقَارَة على رسولِ الله ﷺ، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألوه أن يبعث معهم من يُعلِمُهم الدين، ويُقرئهم القرآن، فبعث معهم عشرة من أصحابه، فلما كانوا بالرجيع ـ وهو ماء لهُذَيلِ بين رَابِغ وجُدَّة ـ استصرخوا عليهم حيًّا من هُذيل يقال لهم: بنو لَحْيَان، فخرج عليهم قريبٌ من مئة رامٍ، فأحاطوا بهم ، وقالوا : " لكم العهد والميثاق إن نزلتم إلينا ألا نقتل منكم رجلاً ." فأما عاصم بن ثابت ـ رضي الله عنه ـ فأبى النزول وقاتلهم في أصحابه، فقُتل منهم سبعة، وبقي خُبَيب، وزيد بن الدَّثِنَّةِ، وعبدالله بن طارق رضي الله عنهم ، فأعطوهم العهد والميثاق مرة أخرى، فنزلوا إليهم ولكنهم غدروا بهم، وربطوهم، فقال عبدالله بن طارق رضي الله عنه:" هذا أول الغدر ". وأبى أن يصحبهم، فقتلوه، وانطلقوا بخبيب وزيد فباعوهما بمكة .

فلما أجمع كفار مكة على قتل خبيبٍ رضي الله عنه، خرجوا به إلى التنعيم، فقال : "دعوني حتى أركع ركعتين"، فتركوه فصلاهما، ثم دعا عليهم، فجاء إليه أبو سفيان، وقال: "أيسرك أن محمدًا عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك؟" فقال رضي الله عنه :" لا والله، ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا ـ ﷺ ـ في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه". فأخذوه وصلبوه .

وأما زيد بن الدَّثِنَّة ـ رضي الله عنه ـ فاشتراه صفوان بن أمية فقتله، ثأرًا لمقتل أبيه ـ عدو الله ـ أمية بن خلف، الذي قُتل يوم بدر.

بئر معونة

قَدِمَ مُلاعبُ الأسِنَّة، عامِرُ بن مالك على رسول الله ـ ﷺ ـ المدينة، فعرض عليه الإسلام، فلم يُسلم ولم يرفض، وقال للرسول ﷺ : " لو بعثتَ رجالًا من أصحابك إلى أهل نجد يدعونهم لرجوت أن يستجيبوا لك ". فقال ﷺ: ((**إني أخشى عليهم أهل نجد**)) . فقال عامر : " أنا لهم جار أن يعرِضَ لهم أحد ".

فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ سبعين رجلًا من القراء، فساروا حتى نزلوا بئر معونة من مياه بني سليم، فلما نزلوها، بعثوا أحدهم بكتاب رسول الله إلى عامر بن الطفيل، فلم ينظر في الكتاب بل قتل الرجل، واستصرخ على البقية قبائل من بني سُليم : عُصَيَّة، ورِعَل، وذَكَران، فأحاطوا بهم وقتلوهم جميعًا إلا كعب بن زيد الأنصاري فإنهم تركوه وبه رمق فعاش حتى قتل يوم الخندق .

ونجا أيضًا عمرو بن أمية الضمري، فإنه أُسر ثم أطلق سراحه، وفي طريق عودته إلى المدينة لقي اثنين من بني عامر فاغتالهما في نومهما، وهو يرى أنه قد أصاب من ثأر أصحابه، وإذا معهما عهدٌ من رسول الله ـ ﷺ ـ لم يعلم به عمرو، فلما وصل المدينة، أخبر النبي ـ ﷺ ـ بما حدث فبادر النبي ـ ﷺ ـ إلى دفع ديتهما، وظلَّ الرسول ـ ﷺ ـ شهرًا يقنت في صلاة الصبح ويدعو على قبائل سليم.

غزو بني النضير

في ربيع الأول، من السنة الرابعة، ذهب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى منازل بني النضير ليستعين بهم في دية القتيلين الذين قتلهما عمرو بن أمية الضمري في بئر معونة، على حسب ما تنص عليه معاهدة الرسول ـ ﷺ ـ معهم، فلما أتاهم الرسول ـ ﷺ ـ اظهروا الرضا ورقُّوا في الكلام، لكنهم كانوا يضمرون الشر والخيانة.

وجلس رسول الله ـ ﷺ ـ إلى جدار ينتظر، فحاول بنو النضير قتلَ النبي ـ ﷺ ـ بأن يُلقي عمرو بن جحاش صخرة عليه من فوق الجدار وهو جالس، لكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أخبر نبيه ـ ﷺ ـ بتخطيطهم ؛ فخرج وكأنه يريد قضاء حاجة له، وعاد إلى المدينة، ثم أنذر النبي ـ ﷺ ـ بني النضير بالجلاء عن حصونهم ومزارعهم خلال عشرة أيام فلم يفعلوا ؛ فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه، فأجلاهم عن المدينة على أن لهم ما حملت الإبل من الأموال والأمتعة إلا السلاح، فصار اليهود يُخربون بيوتهم بأيديهم، ليحملوا الأبواب والشبابيك، فمنهم من خرج إلى خيبر ومنهم من سار إلى الشام، إلا رجلين منهم أعلنا إسلامهما فبقيت لهما أموالهما ولم يخرجا مع المخرجين .

غزوةُ المُرَيْسِيْع

أخذت قبائل بني المصطلق التي تسكن قديدًا وعسفان، تتهيأ للخروج لقتال المسلمين، وذلك بقيادة الحارث بن أبي ضرار، كما أخذت تهيج القبائل الأخرى على القتال، فخرج إليهم رسول الله ـ ﷺ ـ في شهر شعبان من السنة الخامسة بسبع مئة مقاتل .

لما بلغ الحارث بن أبي ضرار ومن معه مسير رسول الله إليهم، خافوا خوفًا شديدًا، وتفرق عنهم من كان معهم من العرب، وانتهى رسول الله إلى المريسيع و أغار المسلمون عليهم عند الماء وهم غافلون، فقتلوا مقاتِلَتهم، وسبوا ذراريهم .

وكانت جويرية بنت الحارث من ضمن السبي، وقد تزوجها رسول الله ﷺ، وكان السبب في زواجه منها أنه لما قَسَّم ـ عليه الصلاة والسلام ـ السبايا، وقعت جويرية في سهم ثابت بن قيس، وأرادت جويرية من رسول الله ـ ﷺ ـ أن يقضي عنها مُكاتبتها، ففعل ذلك وتزوجها، وكان الهدف من زواج رسول الله ـ ﷺ ـ منها الطمع في إسلام قومها، وقد تحقق هذا الهدف السامي، فأعز الله المسلمين بإسلام قومها، وأعتق المسلمون بسبب هذا الزواج من بأيدهم من بني المصطلق.

من مواقف المنافقين

بينما رسول اللهّ ـ ﷺ ـ مقيم عند ماء المريسيع، تجادل رجلان، أحدهما من الأنصار، والآخر من المهاجرين، فقال الأنصاري: " يا للأنصار " وقال المهاجري: " يا للمهاجرين" فلما بلغ ذلك رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ((**دعوها فإنها منتنة**)).

ولما سمع عبدالله بن أبي بن سلول بما حدث من الرجلين غضب، وقال : " فعلوها ؟ أما والله لئن رجعنا إلى المدينة، ليخرجن الأعز منها الأذل ". وأُخْبِرَ رسول الله ـ ﷺ ـ بما قال، فقال عمر رضي الله عنه : " يا رسول الله! دعني أضرب عنقه "، فقال رسول الله ﷺ : ((**دعه، لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه**))، وجاء عبد الله بن أُبي إلى رسول الله ـ ﷺ ـ وحلف بالله أنه ما قال ذلك الكلام . فأنزل الله سورة المنافقين .

ثم إن رسول الله ـ ﷺ ـ عِمد إلى علاج هذه الفتنة بأن أمر الناس بالرحيل حتى يشغلهم عن الحديث والخوض فيها، فسار طيلة اليوم حتى أمسى، والليل حتى الصباح، وصدرًا من النهار، فما كاد الجيش ينزل حتى أخذهم النوم، وانشغلوا عن الحديث وخمدت تلك الفتنة .

وبعد هذه الحادثة ضَعُفَت مكانة عبدالله بن أُبي المنافق في قومه، بل إن ابنه عبدالله، وقف له على أبواب المدينة، ومنعه من الدخول، وقال :" لا تدخل حتى يأذن لك رسول الله ".

حديثُ الإفك

كانت عائشة ـ رضي الله عنها ـ قد خرجت مع رسول الله إلى غزوة بني المصطلق، وفي الطريق، نزل الجيش منزلًا فباتوا فيه بعض الليل، ثم ارتحلوا، وكانت عائشة ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد ذهبت تبحث عن عقد سقط منها حين ذهبت لبعض حاجتها، فلما رجعت إلى المعسكر فإذا بالناس قد ذهبوا.

تقول عائشة : "فتلففت بجلبابي ثم اضطجعت في مكاني وعرفت أني إذا افتُقِدتُ رجع الناس إليَّ، فوالله إني لمضطجعه إذ مر بي صفوان بن المعطل، وكان قد تخلف عن العسكر لبعض حاجته " فلما رأى سواد عائشة أقبل حتى وقف عليها، ثم قرَّب إليها البعير، واستأخر عنها، فلما ركبت، أخذ برأس البعير وانطلق يطلب الناس، فلم يدركهم إلا في الصباح.

ورأى عبد الله بن أبيٍّ ـ رأس المنافقين ـ عائشة ـ رضي الله عنها ـ وهي راكبة على بعير صفوان، فاتهمها، وأخذ يروج ذلك بين الناس. ولكن الله ـ سبحانه وتعالى ـ أنزل براءة عائشة رضي الله عنها ، قال تعالى:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١﴾﴾

و أقام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ الحدَّ على من ثبتت عليهم تهمة القذف.

غزوة الخندق

أراد يهود بني النضير الذين أجلاهم النبي - ﷺ - من المدينة إلى خيبر، بسبب خياناتهم المتكررة، الانتقام من المسلمين ؛ فانطلق نفرٌ من رؤسائهم إلى قريش يحرضونهم على غزو المسلمين في المدينة والقضاء عليهم، ووعدوهم بالنصر والتأييد، وشهدوا لهم أن الشرك وعبادة الأصنام خير من دين الإسلام، فاستجابت لهم قريش، وكانت قريش من قبل تتمنى القيام بعمل عسكري تقضي به على المسلمين، وتؤمن طرق تجارتها، إلا أنها لا تستطيع عمل ذلك بمفردها، فكانت هذه فرصة سانحة لهم.

ثم انطلق الوفد من يهود بني النضير إلى قبائل غطفان فاستجابوا لهم، ونجحت مساعي اليهود في تأليب المشركين على المسلمين، وإقناعهم بمهاجمتهم والقضاء عليهم، فبدأت قريش وقبائل غَطفان تجمع الجموع، وتحزب الأحزاب، وتُعد العدَّة، وتتجهزُ بكل ما يمكنها لغزو المدينة، فخرجت بجيش جرار قِوامه عشرة آلاف مقاتل، خرجت قريش بأربعة آلاف، وخرجت غطفان ومن معهم من قبائل العرب بستة آلاف، واتجهت جيوش الكفر تزحف نحو المدينة، داعيها في ذلك إخماد دعوة الحق، وإطفاء نور التوحيد، والفتك بالمسلمين وإبادتهم، وكان خروجهم في السنة الخامسة من الهجرة.

حفر الخندق

لما عَلِمَ النبي - ﷺ - بتجمع الأحزاب، وتحركهم نحو المدينة، استشار أصحابه - رضي الله عنهم - في الأمر، فأشار عليه سلمان الفارسي - رضي الله عنه - بحفر خندق حول المدينة، في الجهة التي ليس فيها جبال، فأمر رسول الله - ﷺ - بحفر الخندق ووزع العمل بين الصحابة، فجعل لكل عشرة أشخاص أربعين ذراعًا، وأخذ يُشاركهم العمل ونقل التراب .

اجتهد المسلمون في إنهاء الحفر في أسرع وقت، برغم البرد، والمجاعة التي أصابت المدينة في ذلك الوقت، فقد كان الطعام قليلًا، شيئًا من الشعير، أو يسيرًا من التمر. وتم العمل في ستة أيام فقط، وكان طول الخندق خمسة آلاف ذراع، وعرضه تسعة أذرع، وعمقه من سبعة إلى عشرة أذرع.

ما كاد المسلمون يُتِمُّونَ من حفر الخندق، حتى أقبلت جيوش الأحزاب وعسكرت في خارج المدينة. وفوجئ المشركون بالخندق يحول بينهم وبين دخول المدينة، وعسكر النبي - ﷺ - بجيشه المكون من ثلاثة آلاف مقاتل وجعلوا الخندق بينهم وبين المشركين .

حاول المشركون اقتحام الخندق مرارًا، إلا أن المسلمين كانوا يبادرونهم ويمنعونهم . وبقي الخندق حائلًا بين الجيشين ؛ فلم يجر بينهما قتال مباشر، بل اقتصروا على المراماة بالنبل، وقد قُتل من جراء ذلك ثمانية من المسلمين، وأربعة من المشركين .

معجزات في أثناء حفر الخندق

في أثناء حفر المسلمين للخندق أظهر الله ـ سبحانه وتعالى ـ على يد نبيه ـ ﷺ ـ كثيرًا من المعجزات، ومن ذلك أن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ رأى رسول الله ـ ﷺ ـ قد ربط على بطنه حجرين من شدة الجوع ؛ فأراد أن يُقدم للرسول ـ ﷺ ـ طعامًا يَسُد به رمقه ؛ فذبح جديًا صغيرًا كان عنده، وطلب من زوجته أن تطبخ اللحم، وتعجن معه صاعًا من شعير هو كل ما كان يملكه، فلما نضج الطعام، ذهب إلى النبي ـ ﷺ ـ فأخبره أنه قد أعد له طعامًا يكفيه ورجل أو رجلين معه، فقال ﷺ : ((**كثيرٌ طيب**)) ثم دعا رسول الله ـ ﷺ ـ أهل الخندق جميعًا، وكانوا قريبًا من ألف رجل، فأخذ يغرف لهم من اللحم، ويكسر لهم من الخبز، فأكلوا حتى شبعوا، وبقي الطعام وكأنه لم يُمس، وهذا من معجزاته ﷺ.

وفي موقف آخر، تقول ابنة بشير بن سعد : " بعثتني أمي بتمر في طرف ثوبي إلى أبي وخالي، وهم يحفرون الخندق، فمررت على رسول الله ـ ﷺ ـ فناداني، فأتيته، فأخذ التمر مني في كفَّيه، وبسط ثوبًا فنثره عليه، فتساقط عن جوانبه، ثم أمر بأهل الخندق فاجتمعوا، فأكلوا منه حتى شبعوا ".

يهود قريظة ينقضون عهدهم

بينما كانت جيوش الأحزاب تحاصر المدينة، انطلق اليهودي حيي بن أخطب إلى بني قريظة الذين يسكنون في الجنوب الشرقي من المدينة، يحرضهم على نقض العهد الذي بينهم وبين المسلمين، والانظمام إلى الأحزاب في حرب المسلمين، وما زال بهم حتى استجابوا له، وفتحوا جبهة جديدة على المسلمين من الخلف، فموقعهم يُمَكِّنُهم من الهجوم على المسلمين من الخلف، فعظم ذلك على المسلمين، وخافوا على نسائهم وأبنائهم من أن تباغتهم اليهود، وفي ذلك يقول الله تعالى:

﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ ﴾

ثم إن الله استجاب دعاء نبيه وأذن بنصر المسلمين، فأرسل على قريش ومن معهم من الأحزاب جنودًا من الرعب والريح أفزعت قلوبهم، وقلبت قدورهم، وزلزلتهم، فجعلوا لا يَقِرُّ لهم قرار، و لا تثبت لهم خيمة ؛ فلما اشتد عليهم ذلك، ارتحلوا من ليلتهم تلك، وأخبر الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه بعد أن ارتحلت جيوش المشركين، فقال: " الآن نغزوهم ولا يغزوننا ." وصدق ﷺ، فقد كانت تلك الغزوة آخر عمل هجومي لقريش. وقد استمر حصار الأحزاب للمدينة شهرًا كاملًا .

نُعَيم بن مسعود يُخَذِّل جيوش الأحزاب

كان من تدبير الله ـ عز وجل ـ في معركة الأحزاب أن أسلَمَ نُعَيم بن مسعود من قبيلة غطفان، فجاء إلى رسول الله ﷺ، فقال: " قد أسلمت، فمرني بما شئت." فقال: ((**إنما أنت رجلٌ واحدٌ، فخذل عنا ما استطعت، فإن الحرب خدعة**)) . فذهب نُعيم إلى يهود بني قريظة ـ وكان عشيرًا لهم ـ وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: " إن قريشًا إن أصابوا من محمد فرصة انتهزوها، وإلا رجعوا إلى ديارهم "، قالوا : " فما العمل ؟ " قال: " لا تقاتلوا معهم حتى يعطوكم رهائن "، فقالوا : " قد أشرت بالرأي". ثم مضى إلى قريش فقال: " هل تعلمون ودي لكم ونصحي ؟ " قالوا : " نعم " قال: " إن اليهود قد ندموا على نقض العهد مع المسلمين، وإنهم قد أرسلوا إلى محمد أنهم يأخذون منكم رهائن يدفعونها إليه، ثم يمالئونه عليكم، فإن سألوكم فلا تعطوهم ". ثم ذهب إلى غطفان . فقال لهم مثل ما قال لقريش.

ثم إنهم بعثوا إلى يهود: إنا لسنا معكم بأرض مقام وقد هلك الكراع والخف، فاغدوا بنا إلى محمد حتى نناجزه، فأرسلوا إليهم إنا لا نقاتل معكم حتى تبعثوا لنا رهائن .

فلما جاءتهم رسلهم قالوا : "قد صدقكم والله نعيم ". فبعثوا إليهم إنا والله لا نبعث إليكم أحدًا، فقالت قريظة: "قد صدقكم والله نعيم " فتخاذل الفريقان .

حُذيفة بن اليمان في معسكر الأحزاب

في الليلة التي انسحبت فيها جيوش الأحزاب من حصار المدينة، أراد الرسول ـ ﷺ ـ أن يستكشف ما يدور في معسكر المشركين، فطلب من أصحابه أحدًا يأتيه بأخبار القوم، وكان البرد شديدًا، والريح عاصفة، والظلام دامسًا، فتردد القوم، فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ حذيفة بن اليمان أن يذهب لتلك المهمة.

يقول حذيفة ابن اليمان رضي الله عنه: " رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن قعود، وأبو سفيان ومن معه فوقنا، وقُريظة أسفل منَّا، نخافهم على ذرارينا، وما أتت علينا ليلةٌ قطُّ أشدَ ظلمة، ولا أشدَ ريحًا منها، ما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه، ولم يكن معي جُنَّة من العدو ، ولا من البرد، إلا مِرطٌ لامرأتي، لا يجاوز ركبتي، فقال رسول الله : ((**مَنْ رجل يقوم فينظر ما فعل القوم ثم يرجع؟ أسأل الله ـ تعالى ـ أن يكون رفيقي في الجنة؟**)) فما قام رجل من القوم، من شدة الخوف والجوع والبرد، فلما لم يقم أحد دعاني رسول الله ﷺ ؛ فلم يكن لي بدٌّ من القيام حين دعاني، وقال: ((**يا حذيفة اذهب فادخل في القوم فانظر ماذا يصنعون؟**))، فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقَرُّ لهم قدرًا، ولا نارًا، ولا بناء، فقام أبو سفيان فقال : " يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، قد هلك الكراع والخُفُ، وأخْلَتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره فارتحلوا فإني مرتحل".

غزوة بني قريظة

ما إن رجع رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون من الخندق ووضعوا سلاحهم، حتى جاء جبريل ـ عليه السلام ـ فقال للنبي ﷺ : " أَوَ قد وضعت سلاحك ؟ فإن الملائكة لم تضع أسلحتها، فانهض إلى بني قريظة ". فأمر رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه بالتوجه مباشرة إليهم، وأمر مناديًا ينادي في الناس: (لا يُصلِّيَنَّ أحدٌ العصرَ إلا في بني قُريظة)، وانطلق المسلمون إلى يهود بني قريظة الذين نقضوا عهدهم، وانضموا إلى الإحزاب في حرب المسلمين في أحلك الأوضاع، و قد كاد موقفهم ذلك يتسبب في القضاء على المسلمين، وإبادتهم، لولا لطف الله بالمسلمين وتأييده لهم.

فلما قدم عليهم جيش المسلمين التجؤوا إلى حصونهم فتحصنوا بها، فحاصرهم المسلمون خمسًا وعشرين ليلة حتى عظم عليهم البلاء، وضاق بهم الأمر، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ، فحكَّم فيهم سيد الأوس، سعد بن معاذ رضي الله عنه، فحكم سعد بأن تقتل مُقاتِلَتُهم، وتسبى ذراريهم، وأن تقسم أموالهم، فقال رسول الله ﷺ: ((**لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سماوات**)) وكان في جملة من قُتل حُيَي بن أخطب الذي حرَّضهم على الغدر بالمسلمين، ونقض العهد الذي بينهم وبين رسول الله ﷺ، وزين لهم الانضمام إلى الأحزاب في قتال المسلمين .

عُمرة الحديبية

في السنة السادسة من الهجرة خرج الرسول ـ ﷺ ـ بأصحابه إلى مكة يريد العمرة، واختار الخروج في شهر ذي القعدة، وهو من الأشهر الحرم التي تعظمه سائر العرب، فخرج بألف و أربعمائة من أصحابه، وقد استنفر رسول الله ـ ﷺ ـ أهل البوادي من الأعراب للخروج معه، لكنهم أبطؤوا عليه فخرج بمن معه من المهاجرين والأنصار، خرجوا في ثياب الإحرام وساقوا معهم الهدي، وأحرموا بالعمرة، ليعلم النَّاسُ أنهم إنما خرجوا زيارة للبيت وتعظيمًا له، لئلا تفكر قريش في صدهم عن مكة .

وركب الرسول ـ ﷺ ـ ناقته القصواء و أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ من خلفه . فلما بلغوا ذي الحليفة ـ ميقات أهل المدينة ـ أحرم الجميع ودوى صوتهم بالتلبية إعلانًا بعمرتهم. وكان ذلك حقًّا مشروعًا لهم، فإن زيارة البيت حق للناس جميعًا، وليس لقريش ـ بحكم العرف ـ الحقَّ أن تَصُدَّ أحدًا عن زيارته، والطواف به، حتى ولو كان عدوًا، متى راعى حرمه البيت .

إلا أن كفار مكة كانوا قد عزموا ومنذ هاجر الرسول ـ ﷺ ـ والمسلمون معه إلى المدينة على أن يصدوهم عن دخول مكة، وزيارة البيت الحرام .

قريش تمنع المسلمين من العمرة

لما علمت قريش بخروج النبي ـ ﷺ ـ وقدومه للعمرة، أخذوا عدة الحرب، وعزموا على منع المسلمين عن مكة مهما كلفهم الأمر . ومضى رسول الله ـ ﷺ ـ حتى صار قريبًا من مكة، إلا أن قريشًا أصرَّت على منعه من دخول مكة، والطواف بالبيت الحرام، وخرجت خيلهم يقودها خالد بن الوليد لمنع الرسول ـ ﷺ ـ وأصحابه من دخول مكة.

فلما علم رسول الله ـ ﷺ ـ بخروج خيل المشركين، عدل عن الطريق الذي هم فيها وأكمل مسيره ، لأنه لم يكن يريد الصدام مع قريش .

وبينما الرسول ـ ﷺ ـ يسير، بركت ناقته في مكان قريب من مكة يسمى الحديبية، فقال الصحابة: خلأت القصواء (يعنون ناقته ﷺ). فقال ﷺ: ((**ما خلأت القصواء، وما ذلك لها بخلق، لكن حبسها حابس الفيل**)).

وعلم رسول الله ـ ﷺ ـ أن الله ـ تعالى ـ لا يريد له دخول مكة، ولا الصدام مع قريش في ذلك الوقت ؛ فقرر التفاوض معهم في شأن دخول مكة وزيارة البيت الحرام، وقال: ((**والذي نفسي بيده، لا يسألونني خطة يُعظمون فيها حرمات الله، إلا أعطيتهم إياها**)).

مفاوضات الحديبية

نزل رسول الله ـ ﷺ ـ بالمسلمين قريبًا من الحديبية، في طريقه إلى مكة للعمرة، فشكا إليه الصحابة العطش وأن ماء البئر الذي نزلوا عنده قليل لا يكفي، فأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ سهمًا من كنانته، وأمرهم أن يغرزوه في البئر، ففاض ماء البئر وكَثُر، فشربوا، وسقوا دوابهم، وما زال الماء يجيش في البئر حتى ارتحلوا عنه .

وأرادت قريش أن تتأكد فعلًا من سبب مسير النبي ـ ﷺ ـ إلى مكة، فأرسلت الرسل إلى النبي ـ ﷺ ـ فأكد لهم أنه إنما جاء معتمرًا، ومعظمًا للبيت، وتوالت الرسل، وكلهم قد اقتنع بحق المسلمين في دخول مكة، وكان ممن أرسلته قريش عروة بن مسعود الثقفي، فلما عاد إلى قومه بعد ما رأى من تعظيم المسلمين لرسول الله ـ ﷺ ـ وتقديرهم له، قال : " يا معشر قريش، إني جئت كسرى في ملكه، وقيصر في ملكه، والنجاشي في ملكه، واني والله ما رأيت ملكًا قطُّ يُعظمه قومه، كما يعظِم أصحابُ محمدٍ محمدًا، ولقد رأيتُ حوله قومًا لن يسلموه لسوء أبدًا، فانظروا رأيكم ".

وحينما لم تحقق رسل قريش شيئًا، أرسل النبي ـ ﷺ ـ خراش بن أمية إلى قريش يُفاوضهم، ويبين لهم سبب مجيء رسول الله ﷺ، وحمله على بعير له يقال له (الثعلب) إلا أنهم غدروا به، وعقروا البعير، وأرادوا قتل خِراش، فمنعتهم الأحابيش من قتله .

بيعةُ الرُضوان

بينما كان النبي ـ ﷺ ـ مقيمًا في الحديبية، انتظارًا لانتهاء المفاوضات مع قريش، ودخول مكة، تسلل أربعون مسلحًا من شباب قريش، وحاولوا مباغتة عسكر المسلمين، لعلهم يقتلون أحدًا من أصحاب رسول الله ﷺ، فأمسك المسلمون بهم جميعًا، وأتي بهم إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فعفا عنهم وخلى سبيلهم.

ثم أرسل رسول الله ـ ﷺ ـ عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ إلى أشراف قريش يخبرهم أنه لم يأت لحرب، وأنه جاء زائرًا لبيت الله معظمًا لحرمته، وتعثرت المفاوضات بين عثمان ـ رضي الله عنه ـ وقريش، و احتسبت قريش عثمان ـ رضي الله عنه ـ عندها، وراجت إشاعة بأنه قُتل ؛ فقال الرسول ـ ﷺ ـ حين بلغه ذلك : "لا نبرح حتى نناجز القوم " ودعا الناس إلى البيعة، وتمت البيعة تحت الشجرة، وسميت هذه البيعة ببيعة الرضوان، بايع الرسول ـ ﷺ ـ أصحابه على ألا يبرحوا مكانهم حتى يقاتلوا المشركين دون أن يفروا، إذا ما أصاب عثمان ـ رضي الله عنه ـ مكروه، وضرب ـ ﷺ ـ بإحدى يديه على الأخرى، وقال: ((**هذه لعثمان**))، ولم يتخلف وينخذل عن هذه البيعة سوى الجدُّ بن قيس، الذي اختفى خلف ناقته، وبعد البيعة مباشرة جاء الخبر إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن عثمان ـ رضي الله عنه ـ بخير وأنه لم يقتل ولم يصب بأذى.

صُلحُ الحُديبية

لما علمت قريش بمبايعة المسلمين رسول ـ ﷺ ـ على القتال خافت، وسارعت فبعثت سهيل بن عمرو ليعقد مع الرسول ـ ﷺ ـ صلحًا، على أن يرجع المسلمون هذا العام، ويعودوا في العام التالي، وتم الصلح، وقَبِلَ الرسول ـ ﷺ ـ شروط الصلح وسط دهشة الصحابة وغضبهم من هذه الشروط التي كانت تصب في ظاهرها في مصلحة قريش، فقد بَدَت الشروط في أعينهم ظالمة، وأن فيها هضمًا بيِّنًا لحق المسلمين، إلا أن الرسول ـ ﷺ ـ كان يريد الصلح ؛ لأنه كان يعلم يقينًا أن الهدنة في مصلحتهم ؛ وأن الإسلام إذا أنتشر في هدوء وسلام، فسوف يدخل كثير من الناس في الإسلام ، وهذا ما حصل فعلًا، فقد انتشر الإسلام خلال فترة الهدنة بين الناس انتشارًا كبيرًا.

بل كانت تلك الهدنة بين المسلمين وقريشٍ انتصارًا كبيرًا للإسلام والمسلمين، ودليلًا على أن الرسول ـ ﷺ ـ كان ينظر بنور الله وهو يقبل كل شرط من تلك الشروط التي رأى بعض الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ من ظاهرها أنها لمصلحة قريش، ولم يكن يدور في خَلَدِ أحدهم أنهم سيعودون دون أن يؤدوا العمرة التي جاؤوا من أجلها .

بنود صلح الحديبية

كانت بنود صلح الحديبية التي وقعها الرسول ـ ﷺ ـ مع قريش تنص على ما يأتي:

١- وقف الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين.

٢- أن يرجع رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون دون أن يدخلوا مكة، فإذا جاء العام الثانى دخلوها بدون سلاح، سوى السيوف في القُرُب.

٣- أنَّ من أتى إلى المسلمين من قريش ردوه إليهم، ومن جاء إلى قريش من المسلمين لا يُلزَمُونَ برده.

٤- أنَّ من أحبَّ أن يدخل في عهد المسلمين دخل فيه، ومن أحب أن يدخل في عهد قريش دخل فيه.

فدخلت بهذا الشرط قبيلة خزاعة في عهد المسلمين، ودخلت قبيلة بني بكر في عهد المشركين .

غير أن المسلمين لم يتقبلوا تلك الشروط بسهولة ؛ فقد رأوها مُهينة ومُجحفة في حقهم، لذا فإنه لما فرغ رسول الله ـ ﷺ ـ من كتابة المعاهدة، قال للمسلمين: (**قوموا، فانحروا**) قالها ثلاثًا، فلم يقم أحد، فغضب الرسول ﷺ، ودخل على أم سلمة، فذكر لها ما لقي من الناس، فقالت: " اخرج، ثم لا تُكلم أحدًا كلمةً حتى تنحر بُدْنَكَ، وتدعو حالِقَك فيحلقك". فقام الرسول ـ ﷺ ـ وخرج فلم يكلم أحدًا حتى نحر بُدْنَه، ودعا حالقه فحلقه، فلما رأى الناسُ ذلك، قاموا فنحروا إبلهم، وجعل بعضهم يحلق بعضًا .

أبو جندل يعود للمشركين

بينما رسول الله ـ ﷺ ـ يكتب كتاب الصلح هو وسهيل بن عمرو، إذ جاء أبو جندل، ابن سهيل بن عمرو يرسف في الحديد، قد هرب من المشركين إلى رسول الله ﷺ، فلما رأى سهيلٌ ابنه، قام إليه فضرب وجهه، وأخذ بتلابيبه، ثم قال : " يا محمد قد تمت القضية بيني وبينك قبل أن يأتيك هذا ". قال : ((**صدقت**)) فجعل ينتره بتلابيبه، ويجره ليرده إلى قريش، فقال رسول الله ﷺ: ((**أَجِزْهُ لي**)) فرفض سهيل أن يترُكَه، وجعل أبو جندل يصرخ بأعلى صوته : " يا معشر المسلمين أَأُردُّ إلى المشركين يفتنوني في ديني ؟" فزاد ذلك الناس إلى ما بهم، فقال رسول الله ﷺ : ((**يا أبا جندل ؛ اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحًا، وأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عهد الله، وإنا لا نغدر بهم**)).

فوثب عمر بن الخطاب مع أبي جندل يمشي إلى جنبه، ويقول : " اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب". ويدني عمر قائم السيف منه . يقول عمر: "رجوت أن يأخذ السيف فيضرب به أباه ؛ فضن الرجل بأبيه، وتمت القضية ".

مكاسب المسلمين من صلح الحديبية

لقد كان صلح الحديبية نصرًا وفتحًا مبينًا للإسلام والمسلمين، وكما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : " ما كان فتح في الإسلام أعظم من صلح الحديبية " ولقد اتضح مع مرور الأيام المكاسب العظيمة التي نالها المسلمون من هذا الصلح، ومن أبرزها :

أن في إبرام الصلح ذاته اعترافًا من قريش بمكانة المسلمين، وبالدولة الإسلامية .

أما شرط وقف القتال عشر سنوات فقد أعطى النبي ـ ﷺ ـ الفرصة كي يتفرغ لدعوة الملوك كقيصر، وكسرى، والمقوقس، وأمراء العرب إلى الإسلام، وإيصال رسالة الإسلام إلى كل مكان .

وأتاح للمسلمين نشر الإسلام بهدوء وسلام ؛ فلهذا لم يمض عامٌ واحدٌ حتى دخل في الإسلام أكثر من الذين دخلوا فيه خلال خمس عشرة سنة قبله . ولعل في هذا رد على الذين يزعمون أن الإسلام انتشر بالسيف .

أما بالنسبة لرد من جاء من قريش مسلمًا بغير إذن، فقد خدم المسلمين كثيرًا، ولا أدل على ذلك من أن قريشًا قد أرسلت إلى النبي ـ ﷺ ـ تسأله وتناشده الله والرحم أن يتنازل عن هذا الشرط.

أما شرط رجوع المسلمين، ومجيئهم للعمرة في العام الذي يليه فقد أظهر قريشًا أمام الناس بمظهر المعتدين الذين يصدون الناس عن البيت الحرام .

فَضلُ أهل بيعة الرضوان

ثبت في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم ـ رحمه الله ـ الشهادة بالجنة لجميع من شهد بيعة الرضوان عام الحديبية، قال النبي ﷺ : ((**لا يدخل النار ـ إن شاء الله ـ من أصحاب الشجرة أحدٌ، الذين بايعوا تحتها**))، وفي سنن أبي داود : ((**لَا يَدخلِ النَّارَ أحدٌ ممن بَايع تحتَ الشجرة**)) وفي المصنف لابن أبي شيبةَ، قال: "السابقون الأولون، من أدرك بيعة الرضوان. وقد وعد سبحانه هؤلاء بالجنة"، قال الله تعالى: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾

وقال سبحانه: ﴿لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾

وفي الصحيحين عن جابر بن عبدالله ـ رضي الله عنه ـ قال: قال لنا رسول الله ـ ﷺ ـ يوم الحديبية: ((**أنتم خيرُ أهلِ الأرض**)).

ولم يتخلف عن مبايعة النبي ـ ﷺ ـ أحدٌ من المسلمين حضرها، إلا الجدَّ بن قيس، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنه : " لكأني أنظر إليه، لاصقًا بإبط ناقته، قد ضبأ إليها (أي: لصق بها واختبأ)، يستتر بها من الناس".

العودة من الحديبية

لما تم أمر الصلح بين رسول ـ ﷺ ـ وقريش، وكان من بنود تلك المصالحة أن يعود رسول الله ـ ﷺ ـ وأصحابه إلى المدينة، على أن يعتمروا من العام المقبل، طلب رسول الله ـ ﷺ ـ إلى أصحابه أن يتحللوا من عمرتهم، فكَبُرَ ذلك على الصحابة ، حيث كانوا متشوقين لأداء العمرة، والطواف بالبيت، ولم يتصوروا أنهم سيُمْنَعون من دخول البيت، إذ ليس لقريش الحقُّ في منعهم من البيت، فلم يستجيبوا لأمر رسول الله، فدخل رسول الله ـ ﷺ ـ على زوجته أم سلمة مغضبًا، فأشارت عليه ـ ﷺ ـ بأن ينحر هديه، ويتحلل، فإن الصحابة إذا رأوا ذلك سيفعلون مثل ما يفعل، فقام رسول الله ـ ﷺ ـ فنحر هديه، وحلق رأسه، وتحلل من عمرته، فما أن رآه الصحابة حتى فعلوا مثل فعله، فذبحوا هديهم، وتحللوا، وحلق بعض الصحابة، وقصَّر بعضهم، فدعا رسول الله ـ ﷺ ـ للمحلقين، فقال: ((**يرحم الله المحلقين**)) قالوا : " والمقصرين، يا رسول الله " قال: ((**يرحم الله المحلقين**)) قالوا : " والمقصرين، يا رسول الله " قال: ((**يرحم الله المحلقين**)) قالوا : " والمقصرين، يا رسول الله " قال: ((**والمقصرين**)).

وعاد رسول الله ـ ﷺ ـ والمسلمون إلى المدينة دون أن يدخلوا مكة، وفي الطريق نزلت سورة الفتح: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴿١﴾ ﴾ وقد اشتملت السورة على كثير من أحداث الحديبية، وما تم فيها، وما لحق بها من فتوح، والبشارة بعمرة القضاء .

أبو بصير

ما إن وصل رسول ـ ﷺ ـ والمسلمون المدينة قادمين من الحديبية، حتى جاءهم أبو بصير عبيد الله بن أسيد ـ رضي الله عنه ـ فارًا من مكة، فأرسلت قريش اثنين من رجالها ليعودا به إليها تنفيذًا لشروط الصلح، فقال الرسول ﷺ : ((**يا أبا بصير، إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت، ولا يصلح لنا في ديننا الغدر، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجًا ومخرجًا، فانطلق إلى قومك**)).

وحزن أبو بصير رضي الله عنه ، ومضى مع القُرَشِيَّينِ ليعودوا جميعًا إلى مكة، وفي أثناء الطريق احتال على أحد الحارسين فأخذ سيفه وقتله به، ففر الآخر مذعورًا، ورجع إلى النبي ـ ﷺ ـ وقال: " يا رسول الله، وَفَتْ ذِمَّتُكَ وأدَّى الله عنك " فقال ﷺ : ((**ويل أُمِّهِ مِسْعَرَ حرب لو كان معه رجال**)).

وأدرك أبو بصير أنه لا مُقام له في المدينة، ولا مَأمن له في مكة، فانطلق إلى ساحل البحر، وشرع يهدد قوافل قريش بطريق الساحل، وسمع المسلمون المستضعفون في مكة عن مقامه، فتلاحقوا به، حتى اجتمع إليه نحو سبعين رجلًا، كان منهم أبو جندل، وكَوَّنوا جيشًا ضَيقَ على قريش، فلا يظفر بأحد إلا قتله، ولا تمر بهم قافلةٌ إلا اقتطعوها، فأرسلت قريش إلى النبي ـ ﷺ ـ تناشده أن يؤوي إليه هؤلاء فلا حاجة إليها بهم.

مكاتبة الملوك والأمراء

أتاح صلح الحديبية بين المسلمين وقريش فرصة عظيمة لنشر الإسلام بين الناس، وانطلاق مواكب الدعوة إلى البلدان المختلفة، فأخذ النبي ـ ﷺ ـ بمراسلة الملوك والأمراء يدعوهم إلى الإسلام، فمنهم من استجاب وآمن، كما فعل النجاشي رضي الله عنه، وهو غير النجاشي الذي صلى عليه الرسول ـ ﷺ ـ صلاة الغائب، ومنهم من ردَّ ردًّا جميلًا، وأرسل الهدايا لكنه لم يسلم، ومنهم من غضب ومزق كتاب النبي ﷺ، كما فعل كسرى ملك الفرس الذي مزق كتاب النبي ﷺ ؛ فدعا عليه النبي ـ ﷺ ـ وقال: ((**اللهم مزق ملكه**)) ؛ فلم يمض وقت قصير حتى ثار عليه ابنه، فقتله، وأخذ الملك منه.

أما المقوقس ملك مصر، فإنه لم يسلم، ولكنه أكرم رسول النبي ﷺ، وأرسل معه الهدايا للنبي ﷺ، وكذلك فعل قيصر الروم، فقد رد ردًّا طيبًا، وأكرم رسول النبي ﷺ.

أما المنذر بن سَاوَىْ، حاكم البحرين، فإنه لما وصله كتاب النبي ـ ﷺ ـ أسلم، وقرأ كتاب رسول الله ـ ﷺ ـ على أهل البحرين، وعرض عليهم الإسلام، فمنهم من آمن، ومنهم من رفض.

حديث أبي سفيان

يقول أبو سفيان : "كنت في الشام مع ركب من قريش (وكان هذا قبل أن يسلم أبو سفيان)، يقول: فدعانا هرقل إلى مجلسه، ثم دعا بالترجمان فقال : " أيكم أقرب نسبًا بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟" فقلت : "أنا ". فأدناني، وجعل أصحابي خلفي، ثم قال:" إني سائله عن الرجل، فإن كَذَبَني فكذِّبوه ".
ثم سألني فقال : " كيف نسبه فيكم ؟" قلت: "هو فينا ذو نسب ".
قال :" فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟" قلت :" لا ".
قال :" فهل كان من آبائه مِنْ مَلِك ؟" قلت :" لا " .
قال :" فأشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم ؟" قلت: " بل ضعفاؤهم".
قال :" أيزيدون أم ينقصون ؟" قلت : " بل يزيدون ".
قال : "فهل يرتَدَ أحدٌ منهم سَخْطَةً لدينه بعد أن يدخل فيه ؟" قلت :" لا ".
قال : "فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟" قلت :" لا ".
قال:" فهل يغدر ؟" قلت: "لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها ".
قال : "فهل قاتلتموه ؟ " قلت: " نعم " قال: "فكيف كان قتالكم إياه ؟"
قلت : " الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه ".
قال" :ماذا يأمركم ؟" قلت : "يقول: " أعبدوا الله وحدة، ولا تشركوا به شيئًا، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة".
قال: " إن كان ما تقول حقًّا، فَسَيَملكُ موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج، لم أكن أظن أنه منكم، فلو أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدميه ".

فتح خيبر

كان من أخطر مُؤَامَراتِ يهودِ خَيبرٍ على المسلمينَ جمعُ الأحزابِ لمحاصرةِ المدينةِ يومَ الخندق، حيثُ ذهبَ رؤساؤهم إلى قريش وقبائل غطفان وأقنعوهم بغزو المدينة، وفي المحرم من السنة السابعة للهجرة خرج الرسول ـ ﷺ ـ في ألف وأربعمائة مقاتل لفتح خيبر.

وصل المسلمون إلى خيبر قبل طلوع الفجر ، ثم هاجموها بعد أن بزغت الشمس ، وفوجئ اليهود بوجود المسلمين، ولجؤوا إلى حصونهم المنيعة ، و قاوموا مقاومة عنيفة ، وفي اليوم الثالث تم فتح حصن (ناعم) .

ثم تهاوت بقية الحصون في الأيام التالية وقد أوصى النبي ـ ﷺ ـ قائده علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يدعو يهود خيبر إلى الإسلام، وقال له : ((**والله لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حمر النَّعَم**))، وهذا مما يدل على شدة حرصه ـ ﷺ ـ على هدايتهم.

وبلغ عدد شهداء المسلمين عشرين رجلًا ، وقُتل من اليهود ثلاثة وتسعون رجلاً ، وقد أبقى رسول الله ـ ﷺ ـ يهود خيبر فيها، على أن يعملوا في زراعتها، وينفقوا عليها من أموالهم ، ولهم نصف ثمارها ، وأن للمسلمين حقَّ إخراجهم منها متى أرادوا ، فمكثوا فيها حتى وقعت منهم أحداثٌ عِدائية في خلافة عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ فأجلاهم من خيبر ضمن خطة عامة لإجلاء غير المسلمين من جزيرة العرب .

مواقف من فتح خيبر

بعد فتح خيبر أهدت امرأة يهودية، هي زينب بنت الحارث شاةً مشويةً قد وضعت فيها السُّم إلى رسول الله ﷺ ، وقد سألت: "أي عضو من الشاة أحب إلى رسول الله ﷺ " فقيل لها: "الذراع " فأكثرت فيها من السم، وجاءت بها فلما وضعتها بين يدي النبي ـ ﷺ ـ تناول الذراع، فلاك منها مضغة فلم يسغها ولفظها، ثم قال: ((**إن العظم ليخبرني أنه مسموم**)) وأكل معه بشر بن البراء بن معرور، ثم دعا بالمرأة فاعترفت، فقال : ((**ما حملك على ذلك؟**)) قالت: " فعلت بقومي ما فعلت، فقُلتُ: إن كان ملكًا استرحنا منه، وإن كان نبيًا فسيُخبر".

فتجاوز عنها رسول الله ﷺ، ولما مات بشر بن البراء من أثر السم أقام عليها حد القتل.

وشهد أعرابي فتح خيبر ، فقَسَمَ له النبي ـ ﷺ ـ من الغنيمة وهو غائب، فلما حضر أعطوه حصته ، فجاء بها إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال : " ما على هذا اتَّبعتُك ، ولكني اتبعتك على أن أُرْمَى ها هنا ـ وأشار إلى حلقه ـ بسهم فأدخل الجنة ". فقال النبي ﷺ : ((**إن تصدق الله يصدقك**)) فلبثوا قليلًا ، ثم نهضوا في قتال العدو ، فأُتيَّ به يُحمل قد أصابه سهمٌ حيث أشار ، فكفَّنه النبي ـ ﷺ ـ بجبَّتِهِ ، وصلى عليه ، ودعا له ، فكان مما قال : ((**اللهم هذا عبدك ، خرج مهاجرًا في سبيلك ، فقُتلَ شهيدًا، وأنا عليه شهيد**)) .

عودة مهاجري الحبشة

وافق فتح خيبر قدوم جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ومن معه من مهاجري الحبشة . وقد سُرَّ رسول الله ـ ﷺ ـ كثيرًا لمجيئهم . فقد خرجوا من مكة فارين بدينهم، واليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو، وسلطانه يمتد.

وعندما حلُّوا بالمدينة قال رسول الله ـ ﷺ ـ مبتهجًا: ((**والله ما أدري بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر**)).

مكث جعفر وإخوانهُ في الحبشة بضعة عشر عامًا، نزل خلالها قرآن كثير، ودارت معاركُ شتى مع الكفار، وتقلَّب المسلمون قبل الهجرة وبعدها في أطوار متباينة، حتى ظن بعضهم أن مهاجري الحبشة قد فاتهم خير كثير، وأنهم أنزل قدرًا من غيرهم. لكن الرسول ـ ﷺ ـ حين بلغه قول أصحابه أكدَّ: أنهم ليسو بأحقَّ به منهم، وأن لأصحابه هجرةً واحدةً، ولمهاجري الحبشة هجرتين .

ولم يمضِ كبير وقت على أولئك العائدين، حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم بالقرآن والسنة، وانتظموا في مواكب الجهاد.

وقد أشركهم النبي ـ ﷺ ـ في مغانم خيبر مع أهل الحديبية، ولم يقسم لأحد غيرهم معهم ؛ فإن الله جعل خيبر مكافأة سخية لمن ساروا إلى مكة، وبايعوا على الموت تحت شجرة الرضوان.

في طريق العودة من خيبر

انصرف رسول الله ـ ﷺ ـ راجعًا من خيبر إلى المدينة، فلما كان ببعض الطريق، قال من آخر الليل: ((**من رجل يحفظ علينا الفجر لعلنا ننام؟**)) فقال بلال رضي الله عنه : " أنا يا رسول الله أحفظه عليك ". فنزل رسول الله ﷺ، ونزل الناس، فناموا، وقام بلال يصلي، فصلى ما شاء الله ـ عز وجل ـ أن يصلي، ثم استند إلى بعيره، واستقبل الفجر يَرمُقُه، فغلبته عينه فنام، فلم يوقظهم إلا مسُّ الشمس . وكان رسول الله ـ ﷺ ـ أول أصحابه استيقاظًا، فقال: ((**ماذا صنعت بنا يا بلال؟**)) فقال: " يا رسول الله، أخذ بنفسي الذي أخذ بنفسك". قال: ((**صدقت**)) . ثم اقتاد رسول الله ـ ﷺ ـ بعيره غير كثير ثم أناخ، فتوضأ وتوضأ الناس، ثم أمر بلالًا فأقام الصلاة، فصلى رسول الله ـ ﷺ ـ بالناس، فلما سلَّم، أقبلَ على الناس، فقال: ((**إذا نسيتم الصلاة فصلوها إذا ذكرتموها، فإن الله عز وجل يقول:** ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾ .

وفي الحديث: أن رسول الله ـ ﷺ ـ حين استيقظ، واستيقظ أصحابه، أمرهم أن يركبوا حتى يخرجوا من ذلك الوادي، وقال: ((**إن هذا وادٍ به شيطان**)) فركبوا حتى خرجوا من ذلك الوادي، ثم أمرهم أن ينزلوا، وأن يتوضؤوا... الحديث بنحو ما تقدم.

غزوة ذاتِ الرِّقَاع

بعد النصر ـ الكبير الذي أحرزه المسلمون في غزوة بني النضير، وإجلاء اليهود دون قتال قويت شوكة المسلمين، وعادت لهم هيبتهم، وتخاذل المنافقون عن الجهر بكيدهم، وتفرغ الرسول ـ ﷺ ـ لقمع الأعراب الذين كثر تسلطهم على الناس بعد هزيمة المسلمين في أحد، حتى بلغت بهم الجرأة إلى التفكير في غزو المدينة.

ولقد عمدت قبائل غطفان إلى التجمع والاستعداد للمسير لغزو المدينة ؛ فخرج رسول الله ـ ﷺ ـ حين سمع بتجمعهم، خرج إليهم بأربع مئة، وقيل سبع مئة من أصحابه، فلما سمع الأعراب بخروجه ـ ﷺ ـ تملَّكهم الخوف ؛ فهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين وراءهم النساء والذرِّية، وعاد المسلمون إلى المدينة دون أن يحصل قتال، وقد سميت هذه الغزوة بغزوة (ذات الرقاع) لأن المسلمين اضطروا إلى ربط الخرق والجلود على أقدامهم لما تقطعت الأحذية والخفاف بسبب وعورة الطريق، فعن أبي موسى ـ رضي الله عنه ـ قال : "خرجنا مع النبي ـ ﷺ ـ في غزاة، ونحن ستة نفر بيننا بعير نعتقبه، فنقبت أقدامنا، ونقبت قدماي، وسقطت أظفاري، وكنا نلف على أرجلنا الخرق، فسُمِّيت غزوة ذات الرقاع ؛ لما كنا نعصب من الخرق على أرجلنا". وتسمى أيضًا بغزوة نجد، وفي هذه الغزوة صلَّى الرسول ـ ﷺ ـ بالصحابة صلاة الخوف أول مرة في الإسلام.

من صور التضحية

في طريق عودة المسلمين من غزوة ذات الرقاع، وحينما حلَّ الظلام، توقف الجيش للمبيت، وعين النبي ـ ﷺ ـ رجلين لحراسة المعسكر، رجلٌ من المهاجرين، ورجلٌ من الأنصار، هما عبَّادُ بن بشر، و عمَّارُ بن ياسر رضي الله عنهما ، وقسم الليل بينهما نصفين، فاختار عبَّادُ بن بشر ـ رضي الله عنه ـ الحراسة أول الليل وقام يصلي، بينما ذهب عمار بن ياسر ـ رضي الله عنه ـ لينام.

واستغلَّ أحد المشركين الذي كان يتابع جيش المسلمين مع مجموعة من الأعراب هذه الفرصة فأطلق سهمًا أصاب عبادًا رضي الله عنه ، فنزع السهم من جسده ومضى في صلاته، ثم رماه بسهم ثانٍ، فنزعه، واستمر في صلاته، فلما رماه بالسهم الثالث، أسرع فأتمَّ صلاته، وأيقظ عمارًا رضي الله عنه ، فلمَّا رأى عمارٌ الدماء تسيل من جسد عباد، قال: " سبحان الله، ألا نبّهتني أول ما رمى ؟، فقال عبَّاد رضي الله عنه : " كنت في سورة أقرؤها، فلم أحبُّ أن أقطعها، فلما تابع عليَّ الرمي ركعت فآذنتك ، وأَيْمُ الله لولا أن أُضيِّع ثغرًا أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ بحفظه، لقُطع نَفَسي قبل أن أقطعها، أو أنفذها".

أعرابي يحاول قتل النبي ﷺ

كان جيش المسلمين عائدًا إلى المدينة بعد غزوة ذات الرقاع، فلما حلت الظهيرة، وارتفعت حرارة الشمس، أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه بالنزول في أحد الأودية، فانطلق الصحابة يبحثون عن الظل تحت الأشجار، ويستريحون من عناء الطريق، وشدة الحر.

ونزل رسول الله ـ ﷺ ـ تحت شجرة، واضطجع في ظلها، وعلَّقَ سيفه بغصن من أغصانها ونام، وبينما الرسول ـ ﷺ ـ نائمٌ، إذ تسلل إليه رجل من المشركين يدعى غَوْرَثُ بنُ الحارث كان يتابع الجيش ويراقبهم، فأقبل إلى النبي ـ ﷺ ـ حتى وقف على رأسه وهو نائم، ثم أخذ سيف الرسول ﷺ، واستله من غمده، ثم رفعه على رأس النبي ـ ﷺ ـ وقال : "يا محمد، من يمنعك مني ؟ " .

ففتح النبي ـ ﷺ ـ عينيه فإذا بالرجل شاهرٌ السيف، فقال بهدوء: ((**الله**)) فانتفض الرجل، وسقط السيف من يده . فقام ـ ﷺ ـ والتقط السيف ورفعه وقال : للرجل: ((**من يمنعك مني** ؟)) حار الرجل ماذا يقول، فقال: " لا أحد ".

فعفا عنه الرسول ـ ﷺ ـ وأطلقه ؛ فعاهدَ رسولَ الله على ألا يقاتله، ولا يكون مع قوم يقاتلون، ثم مضى الأعرابي إلى قومه وهو يقول: " جئتكم من عند خير الناس ".

عمرة القضاء

بعد مرور عام من صلح الحديبية، وفي ذي القعدة من السنة السابعة، خرج الرسول ـ ﷺ ـ بأصحابه إلى مكة لأداء العمرة، وفي الطريق أحرم الرسول ـ ﷺ ـ من ذي الحليفة، ولبى بالعمرة، وساق معه الهدي، ولبى معه أصحابه .

خرج مستعدًا بالسلاح والمقاتِلَة، خشية أن يقع من قريش غدرًا، فلما بلغ يَأجُج (موضع قريب من مكة) ترك السلاح، وخلَّف عليه أوس بن خَوْلِي الأنصاري في مائتي رجل، ودخل بسلاح الراكب: السيوف في القُرُب.

دخل الرسول ـ ﷺ ـ مكة، وأمر أصحابة بالاضطباع والرَمَلِ في الأشواط الثلاثة، فلما رآهم المشركون قالوا: "هؤلاء الذين زعمتم أن حمى يثرب قد أوهنتهم ". وكان المشركون قد أشاعوا أن المسلمين قد أنهكتهم الحمى، فأراد النبي ـ ﷺ ـ أن يُرهبهم، ويريهم قوة المسلمين .

ولما فرغ ـ ﷺ ـ من الطواف سعى بين الصفا والمروة، ثم نحر الهدي عند المروة، وحلق، وكذلك فعل المسلمون، ثم بعث ناسًا إلى يَأْجُج، ليُقِيموا على السلاح، ويأتي الآخرون فيقضون نسكهم ففعلوا.

خرج المسلمون من مكة بعد أن طلبت قريش إليهم ذلك، حيث قضوا فيها ثلاثة أيام، وهي المدة المتفق عليها.

قِصَّةُ عَمرو بن العاص مع النجاشي

بعد غزوة الأحزاب جمع عمرو بن العاص عددًا من أصحابه، وأشار عليهم بالرحيل إلى النجاشي حتى يروا ما يؤول إليه أمر المسلمين، فإن انتصروا على قريشٍ، عاشوا في الحبشة ما بقي من عمرهم، وإن هزمتهم قريش عادوا إلى بلادهم، فاستحسن أصحابه رأيه، فتجهَّزوا للرحيل.

وبينما هم في الحبشة إذ قَدم عمرو بن أمية الضمري ـ رضي الله عنه ـ إلى النجاشي يسأل عن جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأصحابه، فرأى عمرو بن العاص أنها فرصة سانحة للقضاء عليه ؛ فدخل على النجاشي وسأله أن يُمكِّنه من قتل ابن أمية، فغضب النجاشي غضبًا شديدًا، ومد يده وضرب بها أنفه حتى كاد أن يكسره، فقال له : " أيها الملك، والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتكه "، فقال النجاشي: " أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى لتقتله ؟ "، فتعجَّب عمرو وقال : " أيها الملك، أكذاك هو ؟ "، فقال له : " ويحك يا عمرو، أطعني واتبعه ؛ فإنه والله لعلى الحق، وليظهرنَّ على من خالفه، كما ظهر موسى على فرعون وجنوده " .

عندها شرح الله صدر عمرو بن العاص للإسلام ، وطلب إلى النجاشي أن يبايعه على الإسلام، فبايعه . وكتم عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ خبر إسلامه عن أصحابه، وعاد إلى مكة .

إسلام خالد، وعمرو، وعثمان رضي الله عنهم

حين أراد خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ الخروج إلى المدينة ليسلم بين يدي النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ لقيَ عثمان بن طلحة ـ حارس الكعبة ـ فأخبره بما عزم عليه، ودعاه لرفقته، فأسرع الإجابة . وفي منطقة الهدة التقوا عمرو بن العاص .

يقول خالد ـ رضي الله عنه ـ فقال عمرو: " إلى أين مسيركم ؟ وما أخرجكم ؟ "

قلنا: " الدخول في الإسلام، واتباع محمد صلى الله عليه وسلم ".

قال: " وذاك الذي أقدمني " فاصطحبنا جميعًا حتى دخلنا المدينة فأنخنا بظهر الحرة ركابنا، فأُخبِرَ بنا رسولُ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَسُرَّ بنا، فلبست من صالح ثيابي، ثم عمدت إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فما زال يتبسم إليَّ حين رآني حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد علي السلام بوجه طلق".

فقلت: " إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله ".

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((**الحمد لله الذي هداك، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت أن لا يسلمك إلا إلى خير**)).

قلت: " يا رسول الله إني قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا للحق فادع الله أن يغفرها لي".

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((**الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله**)). ودعا فقال: ((**اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيل الله**)).

قال خالد: " وتقدم عثمان وعمرو فبايعا رسول الله صلى الله عليه وسلم".

يقول: "وكان قدومنا في صفر سنة ثمان".

الطريق إلى مؤتة

بَعَثَ النبيُّ ـ ﷺ ـ الحارث بن عُمير ـ رضي الله عنه ـ بكتاب إلى عظيم بُصرى، فعرض له شُرحبيل بن عمرو الغساني، وكان عاملًا على البلقاء من قِبَلِ القيصر، فقتله، وكان قتل السفراء والرسل من أشنع الجرائم، بل يزيد على إعلان الحرب، فاشتد ذلك على رسول الله ﷺ، فجهز جيشًا قُوامه ثلاثة آلاف مقاتل، وسيره إلى مؤتة، وهي قرية من قرى الشام .

وأمَّرَ على الجيش زيد بن حارثة رضي الله عنه، وقال : ((**إن قُتل زيد فجعفر، وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة**)). وأوصاهم فقال: ((**اغزوا باسم الله، وفي سبيل الله، وقاتلوا من كفر بالله . اغزوا ولا تَغدِروا، ولا تَغُلُّوا ولا تُمثِّلوا، ولا تَقتلوا وليدًا، ولا أصحابُ الصوامع**)).

سار الجيش، ولما أقبل على الشام بلغهم أنه قد اجتمع لهرقل مئتا ألف مقاتل، فتشاورا، فقال بعضهم : " نكتب للنبي ـ ﷺ ـ نُخبره، فإما أن يُمدنا بالرجال، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضي له ". وقال آخرون : " قد وطِئتَ البلادَ وأَخَفْتَ أهلها، فانصَرِف ؛ فإنه لا يَعدلُ العافية شيء ". فقال عبدالله بن رواحه رضي الله عنه : "يا قوم، والله إن الذي تكرهون للذي خرجتم لهُ تطلبون الشهادة، ما نُقاتلُ النَّاس بِعَدَدٍ، ولا عُدَّة، ولا كثرة، ما نُقاتلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطَلِقوا فإنما هي إحدى الحسنيين، إما ظهور، وإما شهادة ". فاستجاب له الجميع، وانطلق الجيش.

معركة مؤتة

في جمادى الأولى من السنة الثامنة، تقابل جيش المسلمين البالغ ثلاثة آلاف مقاتل، والتحم مع جيوش الشام البالغة مئتا ألف مقاتل، التحم الجيشان، واقتتلوا قتالًا شديدًا، وقُتل أول قادة المسلمين زيد بن حارثة رضي الله عنه ، فأخذ الراية جعفر بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وأخذ يقاتل حتى قطعت يده اليمنى، فأخذ الراية بشماله، فقطعت، فاحتضنها بعضديه حتى قتل. وأبدله الله عن يديه جناحين في الجنة، يطير بهما حيث يشاء . ثم أخذ الراية عبد الله بن رواحة رضي الله عنه ، فقاتل حتى قتل.

ثم أخذ الراية ثابت بن أرقم فقال : " يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم ". فاصطلح الناسُ على خالد بن الوليد رضي الله عنه .

فأخذ الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه ، واستطاع الصمود بالجيش، وفي الليل غَيَّر في الخطة، فحوَّل ميمنة الجيش إلى الميسرة، والمقدمة إلى المؤخرة، وأمرهم أن يسيروا ويثيروا الغبار، وأن يكبِّروا، فلما رآهم الروم ظنوا أن المدد قد جاءهم .

ثم أمر خالد ـ رضي الله عنه ـ بالهجوم فقاتلوا قتالًا شديدًا ففر جيش العدو، و هنا أمر خالد بالانسحاب فظن الأعداء أنها خدعة فلم يهجموا عليهم، وتراجع جيش المسلمين، وقتل من الروم خلق كثير، واستشهد من المسلمين اثنا عشر رجلًا .

غزوة مؤتة، دروس وعبر

كان الوحي يخبر رسول الله ـ ﷺ ـ وهو في المدينة بتفاصيل ما يحدث لجيشه في الشام، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال: نعى النبي ـ ﷺ ـ زيدًا، و جعفرًا، و ابن رواحة للناس، قبل أن يأتِيَهُم خبرهم " فقال : ((**أخذ الراية زيدٌ فأصيب، ثم أخذها جعفر فأصيب، ثم أخذها ابن رواحة فأصيب ـ وعينا رسول الله ـ ﷺ ـ تذرفان حتى أخذ الراية سيف من سيوف الله، حتى فتح الله عليهم**)).

ولقد كانت غزوة مؤتة معجزة من المعجزات، وكرامة من الكرامات، فهي من العجائب التي يندر أن تحدث، فكيف يواجه ثلاثة آلاف مقاتل مئتي ألف، ويصمدون، بل يَقْتُلونَ منهم مقتلة عظيمة، حتى إن خالد بن الوليد يقول : " لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفحة يمانية ". وإنه لشيءٌ نادرٌ أن يقف جنديٌ واحدٌ، أمام سبعين من الجنود المحملين بالسلاح، ولكن قوة الإيمان هي التي جعلت المسلمين يصمدون أمام جيش العدو.

لقد أحدثت تلك الغزوة سُمعةً بالغةً للمسلمين بين العرب، فلم يكن أحد منهم يتخيل أن يتجرأ أحد على مجابهة أعظم قوة على وجه الأرض، كيف وقد عاد ذلك الجيش الصغير بدون خسائر تذكر .

سرية ذات السلاسل

اشتركت قبيلة قضاعة مع الروم في غزوة مؤتة، والتي انسحب فيها خالد بن الوليد بجيش المسلمين، وبعد الغزوة مباشرة أحس المسلمون ببداية تحركات مريبة للقبيلة، ورغبة في التجمع لغزو المدينة، فسارع رسول الله ـ ﷺ ـ إلى إرسال جيش لمباغتة القبيلة وتأديبها.

وأعطى رسول الله ـ ﷺ ـ الراية لعمرو بن العاص، فخرج بثلاث مئة مقاتل، وفي الطريق علم عمرو بأن الأعداء قد استعدوا بجيش كبير، لا طاقة لجيشه الصغير به؛ فأرسل إلى رسول الله ـ ﷺ ـ يطلب المدد، فبعث إليه بمئتي مقاتل بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، وفيهم أبو بكر، وعمر رضي الله عنهما.

وصل المدد، وسار الجيش نحو العدو بحذر بالغ، فكانوا يسيرون بالليل، ويكمنون في أثناء النهار، حتى وصل المسلمون إلى ديار قضاعة، فانقضوا عليهم وعلى من تجمع معهم من القبائل الأخرى بهجوم سريع، وتقاتل الفريقان، إلا أن قبائل الأعراب انهزمت، ولم تستطع المقاومة طويلًا، وفروا منهزمين، ومنع عمرو بن العاص المسلمين من ملاحقتهم، خوفًا من أن يكون هناك كمينًا أُعِدَّ لهم. وقد برزت في هذه المعركة حنكة عمرو بن العاص رضي الله عنه، وذكاؤه، وقدراته العسكرية.

قريش تنقض العهد

كان من بنود صلح الحديبية أنَّ من أرادَ الدخول في حِلف المسلمين دخل، ومن أراد الدخول في حلف قريش دخل، فدخلت خزاعة في عهد الرسول ﷺ، ودخلت بنو بكر في عهد قريش، وقد كانت بين القبيلتين حروب وثارات قديمة، فأغارت بنو بكر على خزاعة ليلًا فاقتتلوا، وأصابوا منهم، وساعدت قريشٌ بني بكر بالسلاح والرجال، فأسرع عمرو بن سالم الخزاعي إلى المدينة، وأخبر النبي ـ ﷺ ـ بغدر قريش وحلفائها، فوعده بالنصر والمساندة.

أدركت قريش فداحة الخطأ الذي وقعت فيه، وأرادت تدارك الأمر، فأرسلت أبا سفيان إلى المدينة لتجديد الصلح مع المسلمين، فذهب أبو سفيان إلى ابنته أم حبيبة، زوجة رسول الله ﷺ، لتشفع له عند رسول الله ﷺ، فلما همَّ بالجلوس، رفعت السيدة أم حبيبة الفراش من أمامه حتى لا يجلس عليه، وقالت له: "أنت رجل مشرك نجس، ولا أُحِبُّ أن تجلس على فراش رسول الله ﷺ". فقال: "والله لقد أصابك بعدي شر". ثم خرج أبو سفيان فكلَّم رسول اللهَ ـ ﷺ ـ فلم يردَّ عليه، وذهب إلى أبي بكر، ثم إلى عمر بن الخطاب، ثم إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنهم، فنصحه علي بأن يعود إلى مكة إذ لا فائدة، فرجع أبو سفيان إلى مكة خائبًا.

قصة حاطب بن أبي بلتعة

قرر رسول الله ـ ﷺ ـ التحرك لفتح مكة، وحَرِصَ على إخفاء ذلك الأمر، حتى يباغت قريشًا في دارها، وحين بدأ المسلمون في الاستعداد للانطلاق، كتب حاطب بن أبي بلتعة ـ رضي الله عنه ـ إلى قريش كتابًا يخبرهم بمسير رسول الله إليهم، وأعطاه امرأة كي توصله إليهم، وأتى الخبرُ من السماء ؛ فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ عليًّا والمقداد ـ رضي الله عنهما ـ فقال: ((**انطلقا حتى تأتيا روضة خاخ ، فإن بها ظعينة معها كتاب إلى قريش**)). فلحقا بها، وقالا: "أخرجي الكتاب" قالت:" ما معي كتاب ". فقال علي:" والله لتُخْرِجِنَّ الكتاب أو لَنُجَرِّدَنَك " فلما رأت الجد منه أخرجته من شعرها.

فدعا رسولُ الله ـ ﷺ ـ حاطبًا ، فقال: ((**ما هذا يا حاطب؟**)) قال: " أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله، ما غيرتُ ولا بدلتُ، ولكني كنتُ امرءًا ليس لي في القوم من أهل ولا عشيرة، وكان لي بين أظهرهم ولدٌ وأهلُ، فصانعتهم عليهم (ليكون لي جميل عندهم).

فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : "دعني يا رسول الله أضرب عنقه ، فإنه قد خان الله ورسوله ". فقال رسول الله : ((**إنه قد شهد بدرًا ، وما يدريك يا عمر لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم**)) فذرفت عينا عمر وقال: "اللهُ ورسولهُ أعلم ".

جيش الفتح ينطلق إلى مكة

في رمضان من السنة الثامنة للهجرة قرر رسول الله ـ ﷺ ـ غزو مكة، فأمر المسلمين بالاستعداد، ولم يخبر أحدًا عن الجهة التي سيسير إليها، ولما قَرُب وقت الخروج أفصح عن نيته، وأخبر الناس أنه يريد مكة، وخرج في عشرة آلاف مقاتل، واستخلف على المدينة أبا ذر الغفاري رضي الله عنه .

لما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الجحفة، لقيه عمه العباس بن عبدالمطلب رضي الله عنه ، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا .

وكان أبو سفيان بن حرب ممن يخرج يتجسس الأخبار، فوجده العباس رضي الله عنه ، فنصحه بأن يأتي معه ليطلب له الأمان من رسول الله ﷺ، فجاء به راكبًا معه، حتى أدخله على رسول الله، فقال له الرسول ﷺ : ((**ويحك يا أبا سفيان، ألم يأنِ لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟ ... ألم يأن لك أن تعلم أني رسول الله؟**)) فقال العباس : " ويحك أسلم " فأسلم وشهد شهادة الحق، ويقال: "إنه ما رفع رأسه إلى رسول الله ـ ﷺ ـ منذ أسلم حياء منه".

وقال العباس للرسول ﷺ : " إن أبا سفيان رجلٌ يحب الفخر، فاجعل له شيئًا". فقال النبي ﷺ :" **نعم، من دخل دار أبي سفيان فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن**)).

فتح مكة

تحرك جيش المسلمين لدخول مكة، فأسرع أبو سفيان حتى دخلها، فصاح بأعلى صوته:" يا معشر قريش ، هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ". قالوا: " قاتلك الله ، وما تُغني عنا دارك ". قال : "ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن ". فتفرق الناس إلى دورهم وفي المسجد .

ودخل رسول الله ـ ﷺ ـ مكة متواضعًا لله الذي أكرمه بالفتح، وكان قد وزع جيشه إلى مجموعات، استعداداً لأية مواجهة، ودخل الجيش دون مقاومة تذكر، و مضى رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المسجد الحرام والصحابة معه، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، وكان حول البيت ثلاث مئة وستون صنمًا، فجعل يطعنها بقوس في يده، ويكسرها، ويقول : ﴿ **جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوْقًا** ﴾ ثم طاف بالبيت، ودخل الكعبة، وأزال ما فيها من صور، وتماثيل.

ثم أمر بلالًا أن يصعد على الكعبة فيؤذن، ثم نادى، وقريش مجتمعون حول البيت لا يَدرون ما يُفعلُ بهم: ((**يا معشر قريش، ما ترون أني فاعل بكم؟**)) قالوا : " خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم ". فنظر رسول ـ ﷺ ـ إليهم وقال: ((**لا أقول لكم إلا كما قال يوسف لإخوته: " لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين " اذهبوا فأنتم الطلقاء**)) .

فتح مكة دروس وعبر

خرج رسول الله ـ ﷺ ـ من مكة مهاجرًا ومطاردًا، خرج لا يملك شيئًا من الدنيا، ثم عاد إليها فاتحًا عزيزًا بعد ثمانية أعوام، وهكذا فإن العاقبة للمتقين، والنصر والتمكين للمؤمنين المتقين.

أظهر رسول ـ ﷺ ـ حين دخل مكة فاتحًا منتصرًا كمال التواضع والخضوع والخشوع والشكر والثناء لربه على ما أنعم به عليه، إذ الفضل والمنة لله وحده، فقد دخل مكة وهو مطأطئ الرأس، حتى إن لحيته لَتَمَسُّ رحلَ ناقته تواضعًا لله وخشوعًا، فلم يدخل دخولَ الظلمة الجبارين المتكبرين.

ولقد كان فتحُ مكة بداية فتح عظيم للمسلمين، فقد كان الناس تبعًا لقريش في جاهليتهم، كما أنهم تبع لقريشٍ في إسلامهم، وكانت مكة عاصمة الشِّرك والوثنية، وكانت القبائل تنتظر ما يفعل رسول الله ـ ﷺ ـ مع قومه وعشيرته، فإن نصره الله عليهم، دخلوا في دينه، وإن انتصرت قريش، يكونوا بذلك قد كفوهم أمره. وبفتح مكة دخل الناس في دين الله أفواجًا .

وقد ضرب الرسول ـ ﷺ ـ في عفوه عن أهل مكة الذين آذوه، وأخرجوه وكذبوه، وعذبوا أصحابه وآذوهم، ضرب أعظم الأمثلة وأصدقها في العفو عن الأعداء، فلم يخرب الديار، ولم يسلب الأموال، ولم يسفك الدماء، ولم ينتهك الأعراض، بل قال كلمته المشهورة: ((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)).

هوازن تستعد لغزو المسلمين

بعد فتح مكة، اجتمع رُؤساء قَبيلتي (هَوزِان) و(ثقيف)، وسَلَّموا قِيادَ أمرِهِم، إلى مالك بن عوف سيد (هوزان). وأتفقوا على المسير لقتال المسلمين، ومفاجأتهم قبل أن تقوى شوكتهم، ويرتبوا أمرهم .

وكان مالكُ بن عوف رجلًا شجاعًا ومقدامًا، إلا أنه كان سقيم الرأي، وسيء المشورة ؛ فقد خرج بقومه أجمعين، رجالًا ونساءً وأطفالًا، وساقوا خلفهم أموالهم، ونَعَمِهم ؛ وكان يريد من ذلك أن يستشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحُرمته وراءه فلا يفر عنها. وقد اعترضه في موقفه هذا دُرَيْد بن الصِّمَّة ـ وكان فارسًا مجربًا محنكًا، قد صقلته السنون، وخبرته الأحداث ـ فقال لمالك: "وهل يَرُدُّ المُنهزمَ شيءٌ ؟ إن كانت الدائرة لك، لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وإن كانت عليك: فُضحْتَ في أهلك ومالك". فسفَّه مالك رأيه، ولم يقبل منه، وأصر على المضيِّ في خطته، لا يثنيه عن ذلك شيء.

سار مالك بن عوف بجيشه، وسبق المسلمين إلى وادي حنين، والذي يبعد عن مكة سبعةً وعشرينَ كيلًا تقريبًا، من جهة عرفات، وأدخل جيشه بالليل في مَضائِقِ الوادي، وفَرَّق أتباعه في الطرق والمداخل، وأمرهم بأن يرشقوا المسلمين بالنبال حال دخولهم الوادي، ثم يَشدُّوا عليهم شَدَّة رجلٍ واحد .

غزوة حنين

في شوال من السنة الثامنة للهجرة، خرج رسول الله ـ ﷺ ـ بجيش قوامه اثنا عشر ألف مقاتل ليقابل جيوش هوازن وثقيف التي خرجت للإغارة على المسلمين، والقضاء عليهم .

وكان جيش المشركين قد كَمَنَ في مداخل وادي حنين حتى يباغت المسلمين حال دخولهم. دخل المسلمون الوادي وقتَ السَّحَرِ فانهالت عليهم السهام من كل جانب، وهجم عليهم جيش العدو هجمة رجل واحد ؛ فارتبك المسلمون، وانهزموا .

أما رسول الله ـ ﷺ ـ فثبت، وانحاز إلى جهة اليمين، ولم يبق معه سوى نفر قليل من المهاجرين والأنصار، وأهل بيته، ثم نادى رسول الله ـ ﷺ ـ أصحابه، فأخذوا يتجمعون حوله، ويقاتلون معه ، حتى ردوا العدو، وأثخنوهم، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، فانهزموا، وولوا هاربين، وتركوا خلفهم أموالهم وذراريهم، وغنم المسلمون غنائم كبيرة، حيث بلغ ما أصابه المسلمون كما يُروى: ستة آلاف من الذراري والنساء، و أربعة وعشرون ألفًا من الإبل، والغنم أكثر من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أوقية من الفضة.

ويمكن القول أن غزوة حنين، وهزيمة هوازن كانت آخر مقاومة كبيرة قاومها العرب للرسول ـ ﷺ ـ والمسلمين، حيث شرح الله صدورهم للدخول في الإسلام فتتابعت القبائل تبايع رسول الله، وتعلن إسلامها.

ثبات الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ يوم حنين

لما دخل المسلمون وادي حنين، وباغتتهم جيوش هوازن بالنبال في ظُلمة السحر، انهزموا وتراجع المسلمون، ولم يثبت سوى رسول الله ـ ﷺ ـ ونفر قليل من أصحابه، فقال رسول الله ﷺ:" أي عباس ! نادِ أصحاب بيعة العقبة " فقال عباس : "أين أصحابُ السَّمُرة ؟" يقول العباس: فوالله لكأَن عَطْفَتهُم حين سمعوا صوتي، عَطْفة البقرِ على أولادها، حيث أجابوا مسرعين، فقالوا: "يا لبيك يا لبيك " قال: "فاقتتلوا والكفار". وأخذ رسول الله ـ ﷺ ـ حُصَيِّاتٍ، فرمى بهن وجوه الكفار، ثم قال : "انهَزَمُوا وربَّ محمد " يقول العباس : " فوالله ما هو إلا أن رماهم بحُصيِّاتِه، فما زال أمرُهم مُدبرًا . وانهزمت جيوش هوازن، وفرَّ قائدهم مالك بن عوف، والتجؤوا إلى الطائف، وتحصنوا بها، وقد تركوا وراءهم الأموال، والنساء والذرية".

ولقد كان موقف رسول الله ـ ﷺ ـ وثباته في هذه المعركة دليلًا ناصعًا، على عُمق إيمانه بالله، وثقته بنصره وتأييده، وفيه دليل على جُرأَةٍ غيرِ معهودة، وشجاعة نادرة ؛ فقد تفرق عنه الجيش، وولوا الأدبار، وبقي وحده وسط ساحاتِ القتال، تحفُّ به كمائنُ العدو من كل جانب، فثبت ثباتًا عجيبًا، حتى استطاع بهذه الشجاعة النادرة، وقوة العزيمة أن يعيد الجيش، ويرتب صفوفهم، فكانت الدائرة على عدوهم .

حصار الطائف

لما انهزمت جيوش هوازن، تفرقت في الجبال والأودية، وتحصن قائدهم مالك بن عوف بالطائف، وعسكر آخرون في وادي أوطاس بين حُنين والطائف، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إليهم أبا عامر الأشعري فقاتلهم، فأصابه سهم فاستشهد أبو عامر بعد أن استخلف على الجيش أبا موسى الأشعري، و انهزم المشركون بعد قتال يسير، وولوا هاربين .

وسار رسول الله ـ ﷺ ـ إلى الطائف، فحاصرها، وتحصن أهل الطائف خلف حصونهم المنيعة، وزودوها بما يكفي لعام كامل ، ولما وصل رسول الله ـ ﷺ ـ نزل قريبًا من الحصن، فانتهزت ثقيف الفرصة، ووجهت سهامها إلى معسكر المسلمين، فأصابت منهم اثني عشر رجلاً، كان منهم : عبدالله بن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ الذي استشهد على أثر ذلك.

استمر حصار المسلمين للطائف عدة أيام، بعد أن ابتعدوا عن الحصون قليلًا، تخلل ذلك العديد من المناوشات بين المسلمين والمشركين، ولما طال الحصار، وأصيب عددٌ من المسلمين، استشار الرسول ـ ﷺ ـ بعض أصحابه، فاتفقوا على رفع الحصار.

وقد استخدم المسلمون في هذا الحصار بعض آلات الحرب، كالمنجنيق، واستخدموا آلة من الخشب المغلف بالجلود، تسمى الدبابة.

توزيع غنائم حنين

لما رجع رسول الله ـ ﷺ ـ من حصار الطائف، بدأ في تقسيم الغنائم التي غنمها المسلمون من غزوة حنين، وكان قد حبسها رسول الله ـ ﷺ ـ في الجِعرَانة، وهي: ستة آلاف من السبي، وأربعة آلاف أوقية من الفضة، وأربعة وعشرون ألفًا من الإبل، وأربعون ألفًا من الغنم.

فأعطى المؤلفةِ قلوبهم، ممن أسلموا حديثًا، ترقيقًا لقلوبهم، وتأليفًا لهم على الإسلام، ولم يُعطِ الأنصار شيئًا، فأخذ بعض الأنصار على رسول الله، ووجدوا في أنفسهم، فلما بلغ ذلك رسولَ الله، جمعهم، فقال لهم : ((**يا معشر الأنصار، ألم أجِدكم ضلالًا فهداكم الله بي، وكنتم متفرقين فألفكم الله بي، وعالةً فأغناكم الله بي؟**".

قالوا :" بلى، الله ورسوله أَمَنُّ وأَفْضَل" .

ثم قال:" **أما والله لو شِئتُم لقُلتم كذا وكذا، لأشياء عدَّدها، أوجدتم عليَّ يا معشر الأنصار في أنفسكم في لُعَاعَةِ من الدنيا تألفت بها قومًا ليُسلِموا، ووكلتُكم إلى إسلامكم .**

ألا ترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون برسول الله إلى رِحَالِكم ؟ الأنصار شِعَارٌ والناس دِثَار، ولولا الهجرةُ لكُنتُ امرَأً من الأنصار، ولو سلكَ الناسُ واديًا وشِعبًا، لسَلكتُ واديَ الأنصار وشِعبهم، اللهم ارحم الأنصارَ، وأبناءَ الأنصارِ، وأبناءَ أبناءَ الأنصار ". فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم، وقالوا رضينا برسول الله قسمًا وحظًّا، ثم انصرف رسول الله ﷺ، وتفرقوا .

هدمُ أصنامِ المشركين

بعد فتح مكة، بعث رسول الله ـ ﷺ ـ خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ لهدم العزى، فهدمها، ولما رجع، سأله رسول الله ﷺ: ((**هل رأيت شيئا؟**)) قال :" لا " قال: ((**فإنك لم تهدمها فارجع إليها فاهدمها**)) فرجع خالد، فخرجت إليه امرأةٌ عُريانةُ سوداء، ناشرةَ الرأس، فجعلَ السادِنُ يصيحُ بها، فضربها خالد فجزلها باثنتين، ثم رجع إلى رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبره، فقال: ((**نعم، تلك العزى، وقد أَيِسَت أن تُعبد في بلادكم أبدًا**)).

و بعث عمرو بن العاص ـ رضي الله عنه ـ ليهدم سِواع، وهو صنم لهذيل برهاط، قرابة مئة وخمسين كيلًا شمال شرقي مكة، فلما انتهى إليه عمرو، قال له السادن:"ما تريد؟" قال:" أمرني رسول الله ـ ﷺ ـ أن أهدمه". قال:" لا تقدر على ذلك". قال:" لم ؟" قال:" تُمنع " قال:" حتى الآن أنت على الباطل؟ ويحك فهل يسمع أو يبصر؟" ثم دنا فكسره، ثم قال للسادن:" كيف رأيت؟" قال:" أسلمت لله".

ويذكر ابن سعد ـ دون إسناد ـ أن رسول الله ﷺ، حين فتح مكة، بعث سعد بن زيد الأشهلي لهدم مناة، وكانت للأوس والخزرج وغسان. فخرج في عشرين فارسًا، فلما انتهى إليها قال السادن:" ما تريد؟" قال:" هدم مناة". قال:" أنت وذاك " فأقبل سعدٌ يمشي إليها فخرجت إليه امرأةٌ عريانة سوداء ثائرة الرأس، تدعو بالويل، وتضرب صدرها. فقال السادن:" مناة دونك بعض غضباتك " فضربها سعد بن زيد فقتلها، وهدم الصنم .

أما اللات فسار إليها المغيرة بن شعبة وسفيان بن حرب، فهدماها.

غزوة تبوك

بلغ النبيَّ ـ ﷺ ـ أنَّ الروم بدأت تحشد قوَّاتها لغزو المسلمين، فأراد ـ ﷺ ـ أن يبادرهم بالخروج إليهم . ولقد اجتمع على المسلمين في هذه الغزوة عددٌ من مظاهر الشدَّة، منها: حرارة الجو، ونُدرة الماء، وبُعد المكان، والفقر وضيق الحال التي يعيش فيها المسلمون ؛ ولهذا صرح النبي بجهة الغزو على غير عادته. تقديرًا لتلك العوائق، ولعلمه ببعد المسافة، وطبيعة العدوِّ وعدده وعُدَّته، وحتى يعطي جيشه الفرصة لإعداد ما يلزم لهذا السفر الطويل، والمَهَمةِ الصعبة .

اجتمع مع النبي ـ ﷺ ـ ثلاثون ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من أبناء القبائل العربية، وأعطى اللواء أبا بكر الصديق رضي الله عنه ، وقسم الجيش إلى عدة ألوية، وعيَّن على كلٍ منها قائدًا، ثم استخلف علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ ليقوم برعاية أهله ، فشقَّ عليه أن تفوته هذه الغزوة، فاستأذن النبي ـ ﷺ ـ في الخروج، فقال له ﷺ : ((**أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى ؟، غير أنه لا نبي بعدي**)) [رواه البخاري] .

أما المنافقون فقد تخلَّف معظمهم عن هذه الغزوة، وادَّعوا الأعذار الكاذبة، فمنهم من اعتذر بعدم القدرة على السفر، ومنهم من تعذَّر بقلَّة المتاع، ومنهم من تعذَّر بشدَّة الحرِّ، ومنهم من تعذَّر بالخوف من الافتتان بنساء الروم.

تجهيز جيش العسرة

أعلن النبيُ ـ ﷺ ـ النفير إلى تبوك، وحثَّ الناس على الإنفاق في سبيل الله قائلاً : ((**من جهَّز جيش العُسرة فله الجنة**)) [رواه البخاري] ، فاستجاب الصحابة لندائه، وضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء، فأقبل عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بألف دينار ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ، فاستبشر النبي ـ ﷺ ـ من فعله، وقال : ((**ما ضرَّ عثمان ما عمل بعد اليوم**)) [رواه الترمذي] ويروى أنه تكفَّل بثلاث مئة بعير بكامل عُدَّتها.

وحاول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ أن يسبق أبا بكر ـ رضي الله عنه ـ فأتى بنصف ماله، وإذا بأبي بكر ـ رضي الله عنه ـ يأتي بكل ما عنده دون أن يُبقي لأهله شيئًا، فقال عمر رضي الله عنه : " والله لا أسابقك إلى شيء أبدًا ".

وتصدَّق عبد الرحمن بن عوف ـ رضي الله عنه ـ بألفي درهم، وقَدَّمَ أغنياءُ الصحابة كالعباس بن عبد المطلب ، و طلحة بن عبيد الله ، و محمد بن مسلمة ، و عاصم بن عدي ، رضي الله عنهم أجمعين الصدقات العظيمة.

وكان لفقراء المسلمين نصيبٌ في الصدقة، حيث قدَّموا كل ما يملكون في سبيل الله مع قلَّة ذات اليد، فمنهم من أتى بصاعٍ من تمر، ومنهم من جاء بنصف صاعٍ أو أقل، كل حسب استطاعته.

ولم يسلم الصحابة من سخرية المنافقين من صدقات الفقراء، والتعريض بنيات الأغنياء، وقد كشف القرآن عن خباياهم فقال سبحانه : ﴿ ٱلَّذِينَ يَلْمِزُونَ ٱلْمُطَّوِّعِينَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ وَٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ﴾

مواقف في أثناء الاستعداد لغزوة تبوك

وقف عُلْبَةُ بن زيد ـ رضي الله عنه ـ ينظر إلى جموع المسلمين، وهم يتسابقون إلى الإنفاق والصدقة، والحسرة تملأ فؤاده ؛ حيث لم يجد ما يتصدّق به، فلما جاء الليل وقف يصلِّي ويبكي، ثم رفع يديه إلى السماء وقال: " اللهم إنك قد أمرت بالجهاد، ورغَّبت فيه، ثم لم تجعل عندي ما أتقوّى به مع رسولك، وإني أتصدَّق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني فيها من مال أو جسد أو عِرض "، وفي الصباح سمع علبة النبي ـ ﷺ ـ يقول : ((**أين المتصدق هذه الليلة ؟**))، فلم يَقُم أحد، فأعاد النبي ـ ﷺ ـ مرَّة أخرى فلم يقم إليه أحد، فشعر علبة ـ رضي الله عنه ـ أنه المقصود بذلك، فقام وأخبر النبي ـ ﷺ ـ الخبر، فقال له النبي ﷺ : ((**أبشر، فوالذي نفس محمد بيده لقد كُتبت في الزكاة المتقبلة**)) .

وجاء الفقراء إلى النبي ـ ﷺ ـ يطلبون منه أن يعينهم بحملهم إلى الجهاد، والنبي ـ ﷺ ـ يعتذر بأنَّه لا يجد ما يحملهم عليه، فانصرفوا وقد فاضت أعينهم أسفًا على ما فاتهم من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، فخلَّد الله ذكرهم إلى يوم القيامة، وأنزل فيهم قرآنا، وكانت رغبتهم الصادقة في الخروج سببًا في حصولهم على الأجر كاملًا، فقد جاء في صحيح البخاري أن النبي ـ ﷺ ـ قال : ((**إن بالمدينة أقوامًا، ما سرتم مسيرًا، ولا قطعتم واديًا، إلا كانوا معكم ؛ حبسهم العذر**)) .

انطلاق جيش العسرة

في رجب من السنة التاسعة للهجرة، انطلق جيش العسرة بقيادة النبي ـ ﷺ ـ نحو الشمال، وبدأت المعاناة بسبب نقص المياه، وشدَّة الحرارة، وقِلَّة الرواحل، حتى إن الجماعة من الرجال كانوا يتناوبون على البعير الواحد، ولقد اضطُرَّ بعضهم إلى أكل أوراق الشجر، ونحر الإبل ليشربوا ما في بطونها، وصبر المؤمنون الصادقون على هذا الابتلاءات الشديدة طاعة لله ولرسوله، ورضًا بقضاء الله وقدره، وبعد أن بلغ بهم الـجَهْدُ مبلغًا عظيمًا، واشتد عليهم العطش بما لا طاقة لهم به، طلب أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ إلى رسول الله ـ ﷺ ـ أن يدعو ربه ليغيثهم، فرفع يديه يدعو، فما كاد ينتهي من دعائه حتى أمطرت السماء وارتوى الناس، وملؤوا قِرَبَهم، وكان في هذه المعجزة تثبيت للمؤمنين وتخفيف لمعاناتهم .

وقد مر المسلمون في طريق العودة من تبوك على ديار ثمود، فسارع بعض المسلمين ليروا مساكنهم، ويقفوا على آثارهم، وبلغ ذلك النبي ـ ﷺ ـ فدعا الناس ثم قال لهم : « **لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم، إلا أن تكونوا باكين ؛ حذرًا أن يصيبكم مثلُ ما أصابهم** »، ثم أمرهم بالإسراع في الخروج، وبلغه أن بعضهم تزوّدوا بالماء للشرب وصنع العجين، فأمرهم بإراقة ذلك الماء، وطرح العجين للدواب، إلا أنه استثنى ما أخذوه من بئر ناقة صالح عليه السلام .

مواقف إيمانية

تخلف أبو خيثمة الأنصاري عن الذهاب مع رسول الله ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك، وفي أحد الأيام، وقد انطلق جيش المسلمين، وغادر المدينة، رجع أبو خيثمة إلى داره، فوجد زوجتيه، قد هيئتا له مكان جلوسه ورشتاه، وبردتا الماء، فوقف على باب العريش، ولم يدخل، وقال: " رسول الله ـ ﷺ ـ في الحر والسموم، وأنا في الظل والنعيم، ما هذا بإنصاف".

ثم أمر بناقته فجُهزت له، وانطلق من ساعته ليلحق برسول الله ﷺ، فلما أقبل على معسكر المسلمين، ورآه رسول الله ـ ﷺ ـ مقبلًا من بعيد، قال: ((**كن أبا خيثمة**)) فلما اقترب قال الناس : "هو أبو خيثمة " فجاء إلى النبي ـ ﷺ ـ فدعا له.

وكان أبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ قد تأخَّر عن الجيش، فبحث عن راحلةٍ تُمكِّنُه من اللحاق بهم، فلم يجد سوى راحلةٍ هزيلة، فلما أبطأت به وخشي أن يتأخَّر، أخذ متاعه وحمله على ظهره، ومشى على قدميه حتى اقترب من الجيش، فرآه أحدُ الصحابة فقال : " يا رسول الله، هذا رجلٌ يمشي على الطريق "، فقال ﷺ: ((**كُن أبا ذر**)) فلمَّا تأمَّله القوم، قالوا : " يا رسول الله، هو والله أبو ذر" قال ﷺ : ((**رحم الله أبا ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده**)).

من معجزات النبي ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك

شهدت معركة تبوك العديد من المعجزات، فمن ذلك: أنه اشتد العطش على الجيش ؛ فدعا ـ ﷺ ـ ربه، فتجمَّع السحاب، وهطل مطرٌ غزيرٌ، فشرب الناس وسقوا أنعامهم، وملؤوا أوعيتهم، ولما غادروا وجدوا أن تلك السحابة لم تجاوز معسكرهم.

وضلَّت ناقة النبي ﷺ، فقال أحد المنافقين: " أليس يزعم أنه نبي، ويُخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته ؟ " فلما بلغه ذلك، قال : « **إني والله لا أعلم إلا ما علَّمني الله، وقد دلَّني الله عليها، وهي في مكان كذا وكذا** » فانطلَقوا إلى ذلك الموضع، فوجدوها.

وأصابَ الناسَ مجاعةٌ فأمر بجمع ما لديهم من طعام قليلٍ، ثم دعا أن يُبارك الله فيه، فكثر وأخذوا في أوعيتهم، حتى ما تركوا في المعسكر وعاءً إلا ملؤوه، وأكلوا حتى شبعوا، وبقيت زيادة .

وفي تبوك، بعث خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ إلى دومة الجندل، وأخبره بأنَّه سيجد ملكها أُكيدِر بن عبد الملك يصيد البقر، وفي تلك الليلة رأى أُكيدر البقر تقترب من القصر حتى لامسته بقرونها، فنزل وخرج للصيد، فأسره خالد بن الوليد رضي الله عنه ، وقَدِمَ به على النبي ﷺ.

وأخبر ـ ﷺ ـ بقدوم ريح شديدة، فلما جاء الليل هبَّت الريح، وأخبر أن أبا ذر يموت وحده، فمات في خلافة عثمان بن عفان، وهو في طريقه إلى منطقة الربذة. وأُصيبت رواحل المسلمين بالإجهاد والتَّعب، فنفخ على ظهورها فنشطت، حتى وجد الصحابة صعوبةً في السيطرة عليها .

في تبوك

حين كان النبي ـ ﷺ ـ معسكرًا في تبوك، أرسل خالد بن الوليد ـ رضي الله عنه ـ بأربع مئة وعشرين فارسًا إلى دومة الجندل، فأسر مَلِكَها أُكَيدِر ابن عبدالملك الكِنْدِي وكان نصرانيًا، بينما كان خارجًا للصيد، وقد صالحه النبي ـ ﷺ ـ على الجزية . كما جاء ملك أيلة إلى النبي ـ ﷺ ـ يطلب الصلح على أن يدفع الجزية، وأهدى للنبي ـ ﷺ ـ بغلة بيضاء وبردًا .

مكث رسول الله ـ ﷺ ـ في تبوك عشرين يومًا ولم يحدث بينه وبين الروم، ولا القبائل العربية الأخرى قتال، حيث آثرت القبائل الصلح مع المسلمين، وآثر الروم السلامة، والانسحاب إلى حصونهم في الشام، بعد أن أدركوا أنه لا طاقة لهم بمواجهة جيش المسلمين، برغم تفوقهم في العدد والعدة، وهكذا أعز الله جنده أمام أكبر قوة على وجه الأرض في ذلك الزمان. وكانت غزوة تبوك آخر غزوات الرسول ﷺ .

عاد رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة، فبدأ بالمسجد، فصلى فيه ركعتين، ثم جلس للناس، فجاء المُخَلَّفونَ يعتذرون إليه، ويحلفون له ليرضى عنهم، وكانوا بِضعة وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسولُ الله علانيتهم، واستغفر لهم، ووكل سرائرهم إلى الله.

خبر الثلاثة

كان ممن تخلف عن غزوة تبوك ثلاثة من خيار الصحابة، هم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، وقد كانوا من السابقين الأولين، ولهم حسن بلاء في الإسلام، ولم يكن تخلفهم عن شك ولا نفاق، فلما رجع رسول الله ـ ﷺ ـ اعتذر من اعتذر من المنافقين، وقبل الرسول ـ ﷺ ـ عذرهم، إلا هؤلاء الثلاثة فإنهم ندموا على ما فعلوا، وصدقوا رسول الله ﷺ، ولم يحلفوا كذبا ولم ينافقوا كما فعل غيرهم، فأمر النبي ـ ﷺ ـ بهجر هؤلاء الثلاثة، فاعتزلهم المسلمون وهجروهم خمسين ليلة، لا يكلمونهم، ولا يردون عليهم السلام، ولا يجيبون دعوتهم، ولما مضت أربعون ليلة أمرهم النبي ـ ﷺ ـ أن يعتزلوا نساءهم أيضًا، حتى ضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم الدنيا بأسرها.

أما هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع فقعد كل واحد منهما في بيته يبكي، وأما كعب بن مالك فكان يطوف في الأسواق ويُسلِّم، لكن لا أحد يرد عليه السلام. ثم أنزل الله توبته عليهم، بعد أن محصهم وعلم صدق توبتهم، وقوة إيمانهم، وصدق يقينهم، قال تعالى:

﴿ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ [التوبة]

مسجد الضرار

كان أبو عامر الراهب قد تَنَصَّرَ في الجاهلية، وكان له شرف في قومه الخزرج، فلما قدم رسول الله ـ ﷺ ـ إلى المدينة واجتمع المسلمون عليه بارزه بالعداوة، وخرج فارًا إلى مكة يحرض قريشًا على حرب رسول الله ﷺ، فاجتمعوا بمن وافقهم من أحياء العرب وقدموا عام أحد، وكان هذا الفاسق قد حفر حفائر فيما بين الصفين فوقع في إحداهن رسول الله ﷺ .

و لما فرغ الناس من أحد ورأى أمر الرسول ـ ﷺ ـ في ارتفاع وظهور، ذهب إلى هرقل ملك الروم يستنصره على النبي ﷺ، فوعده ومنَّاه فأقام عنده وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق يعدهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلًا ومرصدًا إذا قدم عليهم بعد ذلك ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء، فلما فرغوا منه جاؤوا فسألوا رسول الله ـ ﷺ ـ أن يصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته، وذكروا أنهم إنما بنوه للضعفاء وأهل العلة في الليلة الشاتية، فوعدهم أن يأتي إليهم حين العودة من غزوة تبوك، فلما قفل ـ ﷺ ـ راجعًا إلى المدينة من تبوك نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار، فبعث رسول الله ـ ﷺ ـ إلى ذلك المسجد مَنْ هدمه .

عام الوفود

بعد فتح مكَّة، وانتصار المسلمين في غزوة تبوك، بادرت قبائل العرب إلى الإسلام، وأقبلت الوفودُ تبايعُ النبيَّ - ﷺ - من كل حدبٍ وصوب، وكان من أبرزها :

وفد بني تميم: ويعدُّ من أبرز الوفود التي جاءت إلى المدينة في ذلك العام ؛ وذلك لمكانتها بين قبائل العرب، وسمعتها في مجال الأدب والخطابة والشعر ، وكان قدومهم بسبب سريَّة عيينة بن حصن - رضي الله عنه - إليهم، فقد أسر منهم أحدَ عشرَ رجلًا، وإحدى عشرة امرأة، فقدم رؤساؤهم وأشرافهم ليشفعوا في هؤلاء الأسرى .

وهم الوفد الذين نادوا الرسول - ﷺ - من وراء الحجرات . ثم جرى بينهم وبين المسلمين مساجلات شعريَّة ومعارضات خطابيَّة، كانت في النهاية سببًا في إسلامهم وإسلام قومهم بعد ذلك.

وفد عبدالقيس: فقد جاء مُنقِذُ بن حيَّان إلى المدينة للتجارة، فسمع من النبي - ﷺ - فأسلم، ثم بعثه النبي - ﷺ - بكتابٍ إلى قومه يدعوهم إلى الإسلام، فتوافدوا عليه في ذلك العام، وكان كبيرهم هو الأشج الذي قال فيه النبي ﷺ : ((**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**)).

وفد نجران: وجاء وفد نصارى نجران، لكنهم لم يسلموا، إنما صالحوا النبي - ﷺ - على دفع الخراج.

وفد بني سعد بن بكر

جاء في البخاري أن رجلًا دخل المسجد على النبي - ﷺ - فقال: "إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجد عليَّ في نفسك. " فقال : ((**سل عما بدا لك**))، فقال: "أسألك بربك وربِّ من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم ؟ " فقال : ((**اللهم نعم**))، فقال : "أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة ؟ " فقال : ((**اللهم نعم**))، فقال له : " أنشدك بالله، آلله أمرك أن نصوم هذا الشهر من السنة؟ " فقال : ((**اللهم نعم**))، فقال له : " أنشدك بالله، آلله أمرك أن تأخذ هذه الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا ؟ " فقال النبي ﷺ : ((**اللهم نعم**)). فقال الرجل: "آمنت بما جئت به، وأنا رسول من ورائي من قومي، وأنا ضمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر ".

ولما رجع إلى قومه اجتمعوا إليه، فكان أول ما تكلم به أن قال : "بِئْسَتِ اللاتُ والعزى ". قالوا:" مَهْ يا ضِمَام، اتق البرص والجذام، اتق الجنون ". قال :" ويلكم، إنهما والله لا يضران ولا ينفعان، إن الله عز وجل قد بعث رسولًا، وأنزل عليه كتابًا استنقذكم به مما كنتم فيه، وإني أشهد ألَّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، إنى قد جئتكم من عنده بما أمركم به، ونهاكم عنه "، ولم يمض ذلك اليوم حتى أسلمت ديار بني بكر كلِّها . قال ابن عباس رضي الله عنهما : " فما سمعنا بوافد قوم كان أفضل من ضمام بن ثعلبة " .

وفد بني عامر

قدم وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ، وفيهم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس، وكان عامر يُضمر الغدر لرسول الله ـ ﷺ ـ فقال لأربد إذا قدمنا على الرجل فإني سأشغله عنك، فإذا فعلت ذلك فاضربهُ بالسيف، فلما قدموا على رسول الله ـ ﷺ ـ قال عامر: " يا محمد خاللني (أي صادقني)" فقال ﷺ: ((**لا والله حتى تؤمن بالله وحده**))، وحاول عامر أن يستمر في الحديث وهو ينتظر صاحبه أن ينفذ ما اتفقا عليه، وصاحبه ساكن لا يتحرك، فلما طال به الأمر قال للنبي ﷺ : " والله لأملأنَّها عليك خيلاً ورجالاً " ثم انصرف هو وصاحبه، فقال ﷺ : ((**اللهم اكفني عامر بن الطفيل**)).

والتفت عامر إلى صاحبه فقال : " ويلك يا أربد، أين ما كنت أوصيتك به؟" . قال أربد: " لا تعجل عليَّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به من أمره إلا ما دخلتَ بيني وبين الرجل حتى ما أرى غيرك، أفأضربك بالسيف؟ " وفي الطريق بعث الله الطاعون فأصيب به عامر بن الطفيل في عنقه، ومات في بيت امرأة بغيٍّ من بني سلول، فقال: "يا بني عامر أغُدَّةٌ كغدة الإبل! وموتًا في بيت سلولية!" .

ولما عاد أربد إلى دياره، سأله بعضهم عما جرى فقال: "لا شيء والله، لقد دعانا إلى عبادة شيء لوَدِدت أنه عندي الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله". وبعد يومين خرج لبعض شأنه ومعه جمله فأرسل الله ـ سبحانه وتعالى ـ صاعقة أحرقتهما.

حجُّ أبي بكر الصديق

في السنة التاسعة من الهجرة النبوية، أمر رسول الله ـ ﷺ ـ أبا بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ أن يحج بالناس، فخرج في ذي الحجة، وخرج معه قريبًا من ثلاث مئة، ومعهم عشرون بدنة، وبعد خروج أبي بكر، نزلت سورة براءة، فأرسل رسول الله ـ ﷺ ـ علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ بصدر السورة ليعلنها على الناس في الحج، يوم النحر، وقال : ((**لا يُؤدي عني إلا رجلٌ من أهل بيتي**)) فلما قَدِمَ عليٌّ على أبي بكر، سأله أبو بكر : " أأمير أم مأمور ؟" فقال علي : " بل مأمور " فمضيا، أبو بكر أمير على الناس، وعلي يبلغ صدر سورة براءة.

وجعل علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ يبلغ الناس صدر السورة، وكان يساعده في النداء في الناس عدد من الصحابة، منهم أبو هريرة، والطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنهم .

وكان مما بُعث به علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أربع: (لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة، ولا يطوف بالبيت عُريان، ولا يحج البيت بعد العام مشرك، ومن كان بينه وبين رسول الله ـ ﷺ ـ عهد، فعهده إلى مدته).

عداوة عبدالله بن سلول للإسلام

اجتمعت قبيلتا الأوس والخزرج على تنصيب عبدالله بن سلول حاكمًا على المدينة، فلما تمت الهجرة، اجتمع الناس على رسول الله ﷺ، فغضب ابن سلول لزوال الملك عنه ؛ فوقفَ حياته لحرب الإسلام، وإشعال الفتنة، وشنُّ الحرب النفسية، وزرع بذور الاختلاف.

فمِن أعماله الدنيئة انسحابه بثلث الجيش يوم أحد قُبيل لقاء العدو، مما كاد أن يُحدثَ فتنة عظيمة بين المسلمين، لولا أن الله ثبت عباده المؤمنين .

وبعد انتصار المسلمين على يهود بني قينقاع، سارع في الشفاعة لحلفائه اليهود وألحَّ على النبي ـ ﷺ ـ وأمسكه من ثيابه، حتى ظهر الغضب في وجه النبي ﷺ، فقال له: ((**هم لك**)).

وفي غزوة بني النضير حرض حلفاءه اليهود على قتال المسلمين، وعدم الاستسلام لهم، ووعدهم بالنصرة والمساعدة.

وهو الذي اختلق حادثة الإفك على أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها ، واتهم رسول الله ـ ﷺ ـ في عرضه .

وهو العقل المدبِّر لفكرة (مسجد الضرار)، وهو الذي قال: " لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا "، وهو القائل تعريضًا بالنبي ﷺ: " لئن رجعنا إلى المدينة، ليُخرجن الأعزُ منها الأذل ".

وفاة رأس النفاق عبدالله بن أُبَي

في أواخر شهر شعبان من السنة التاسعة للهجرة بدأ المرض بعبدالله ابن أبي بن سلول، رأس النفاق، وزعيم المنافقين، وأخذ يقاسي آلام المرض وشِدَّةَ الموت، ولما توفي، جاء ابنه عبدالله رضي الله عنه، والذي كان من خِيرة الصحابة، إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : " يا رسولَ الله، أعطني قميصك أُكفنه فيه، وصلِّ عليه، واستغفر له "، فأعطاه النبيُ ـ صلى الله عليه وسلم ـ قميصه، وقام ليصلَّي عليه، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : " أليس الله نهاك أن تصلي على المنافقين ؟ "، فقال صلى الله عليه وسلم : ((**إني خُيِّرتُ فاخترتُ، ولو أعلمُ أني إن زِدتُ على السبعينُ يُغفرُ له لزدت عليها**)) فلما صلى عليه نزل قوله تعالى :

﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾ [التوبة: ٨٤] .

وبموت عبدالله بن أبي بن سلول انحسرت حركة النفاق بشكل كبير، وتراجع بعض أفرادها عن ضلالهم، في حين اختار بعضهم البقاء على الكفر الذي يضمرونه، والنفاق الذي يظهرونه، لا يعرفهم سِوى حُذيفة بن اليمان صاحبُ سرِّ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .

حَجَّةُ الوداع

بعد أن أتمَّ النبيُّ ـ ﷺ ـ إبلاغَ الرسالة، وفُتحت مكة، ودَخل النَّاسُ في دين الله أفواجًا، فَرَضَ اللهُ الحجَّ على الناس، وذلك في أواخر السنة التاسعة من الهجرة، فعزم رسول الله ـ ﷺ ـ على الحج، وأعلن ذلك للناس، فلما علم الناس أنَّ رسول الله ـ ﷺ ـ يريد الحج هذا العام، قَدِمَ إلى المدينة خلق كثير، كلهم يريد أن يحج مع رسول الله ﷺ، وأن يأتَمَّ به.

وخرج من المدينة في الخامس والعشرين من ذي القعدة من السنة العاشرة للهجرة، وانطلق بعد الظهر حتى بلغ ذا الحليفة، فاغتسل لإحرامه وادَّهن وتطيب، ولبس إزاره ورداءه، وقلَّد بُدُنَه، ثم أَهَلَّ بالحج والعمرة وقَرَنَ بينهما، وواصل السير وهو يُلَبِّي، فلما قَرُبَ من مكة، نزل بذي طوى، وبات بها ليلة الأحد من اليوم الرابع من ذي الحجة، وصلى بها الصبح، ثم اغتسل، ودخل مكة نهارًا من أعلاها، فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، ولم يُحِلَّ من إحرامه ؛ لأنه كان قارنًا وقد ساق الهدي معه، وأمر من لم يكن معه هدي من أصحابه أن يجعلوا إحرامهم عمرة، فيطوفوا بالبيت وبين الصفا والمروة، ثم يحلوا من إحرامهم، وأقام النبي ـ ﷺ ـ وأصحابُه بمكة أربعة أيام من يوم الأحد إلى يوم الأربعاء.

كيف حجَّ رسولُ الله ﷺ ؟

في اليوم الثامن من ذي الحجة توجه رسول الله ـ ﷺ ـ إلى منى فصلى بها الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، والفجر، ولما طلعت الشمسُ، سار حتى نزل بِنَمِرَةَ، ولما زالت الشمسُ أتى بَطْنَ وادي عُرَنَةَ، فخطبَ الناسَ خطبةً جامعةً، ثم صلى بالناس الظهر والعصر، ثم ركب حتى أتى موقف عرفات، فاستقبل القبلة، ولم يزل واقفًا يدعو حتى غربت الشمس، فلما غربت الشمس، أفاض إلى المزدلفة، فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين، ونام فيها، فلما طلعَ الفجرُ صلاها في أولِ الوقتِ، فلما أسفرَ الصبحُ، دَفَعَ إلى مِنَى قَبلَ أن تَطلُع الشمس، فَرمى جمرةَ العَقَبَةِ راكبًا بسبعِ حَصياتٍ، يُكبِّر مع كل حصاة .

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثًا وستين بَدنة بيده، ثم أمر علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ أن يَنحرَ ما بَقيَ من المئَة . ثم استدعى الحلاق فحلقَ رأسهُ .

ثم أفاضَ إلى مكةَ، وطافَ بالبيت طواف الإفاضة، ثم رجع إلى منى في اليوم نفسه، فبات بها، فلما أصبح انتظر زوال الشمس، فلما زالت أتى الجمرات، فبدأ بالجمرة الصغرى، ثم الوسطى، ثم جمرة العقبة، يرمي كل جمرة بسبع حصيات، ويكبرُ مع كل حصاة، وفعلَ ذلكَ في باقي أيام التشريق، وأقام النبي ـ ﷺ ـ أيام التشريق بِمِنَى، ثم توجَّهَ إلى مكةَ، فطافَ طواف الوداع، ثم توجه راجعًا إلى المدينة، بعد أن أكمل حجه.

بعثُ أُسامة بن زيد إلى البلقاء

أراد الرسول ـ ﷺ ـ إرهاب الروم، وخاصة بعد حادثة قتل الروم لفروة بن عمر الجذامى ـ رضي الله عنه ـ بعد إسلامه، وقد كان واليًا من قبل الروم على معان وما حولها من أرض الشام.

فلما رجع ـ ﷺ ـ من حجة الوداع، جهز جيشًا، واختار لإمرةِ هذا الجيش مولاه أسامة بن زيد، وكان وقتئذ ابن ثماني عشرة سنة، وأَمَرَهُ أن يُوطىء الخيل أرض الشام، فتجهز الناس، وحشد معه المهاجرين والأنصار.

وعسكر أسامة ـ رضي الله عنه ـ بالجرف، خارج المدينة، وتتابع الناس ينتظمون في جيشه، حتى بلغ عددهم ثلاثةَ آلافِ، إلا أن مرض رسول الله ـ ﷺ ـ أكرههم على التريث حتى يطمئنوا عليه.

وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ كان من أول ما اعتمده أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ إنفاذ بعث أسامة، وقال قولته المشهورة:" والذي لا إله غيره لو جرت الكلاب بأرجل أزواج رسول الله ما رددت جيشاً وجهه رسول الله، ولا حللت لواءً عقده رسول الله ". ثم نهض بنفسه إلى الجرف، فاستعرض جيش أسامة، وأمرهم بالمسير .

وسار الجيش، فجعل لا يمر بقبيلة يريدون الارتداد إلا قالوا لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندِهِم، ولكن ندعُهُم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم، وقتلوا منهم، ورجعوا لأربعين يومًا، وقيل لسبعين سالمين غانمين، وثبَّت الله الناس على الإسلام.

مسيلمة الكذاب

ادَّعى مسيلمةُ النبوةَ في أثناء حياة الرسول ﷺ ، ولما قامت حروب الرِّدة، أرسل إليه أبو بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خالد بن الوليد في عشرة آلاف. واجتمع لمسيلمة أربعون ألفًا، واندلع القتال، وشدَّ بنو حنيفة حتى وصلوا إلى خيمة خالد بن الوليد نفسه، فنادى خالد بن الوليد في الناس، وحضهم على القتال ؛ فاستبسل المسلمون، وانقض خالدٌ ومن معه على معسكر مسيلمة، وشد عليهم ففر مسيلمةُ وبنو حنيفة، وتحصنوا بحديقة لهم، وأغلقوا على أنفسهم الأبواب، وحار المسلمون ماذا يفعلون!

فقال البراء بن مالك رضي الله عنه ، وكان شجاعًا مِقدامًا: "يا معشر المسلمين، ألقوني عليهم في الحديقة " وألحَّ عليهم، فألقوه، وفى يديه سيفان يضرب بهما، حتى فتح الباب للمسلمين.

ودخل المسلمون الحديقة، ودارت حرب طاحنة، واستمات المرتدون في القتال، وبحث وحشي عن مسيلمة، فلما رآه، رماه بحربته، فوقعت في قلب مسيلمة، وخرجت من ظهره، وفى الوقت نفسه كان الصحابي أبو دجانة البطل المشهور، صاحب العصابة الحمراء، قد ضرب رأس مسيلمة بالسيف، فاشترك الاثنان في قتله، فانهارت بنو حنيفة وانهزموا، وقد قُتل من المسلمين يومَها ألف رجل، في حين قتل من المرتدين خمسةَ عشرَ ألفًا.

بدء المرض برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

في التاسع والعشرين من شهر صفر للسنة الحادية عشرة، شَهِدَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ جنازة بالبقيع، فلما رجع ودخل على عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: " وارأساه " فقال ﷺ: ((**بل أنا وارأساه**))، وصار المرض يشتد، وكان يخرج ويصلي بالناس، وقبل وفاته ـ ﷺ ـ بخمسة أيام، وقبل صلاة الظهر كانت حرارة بدنه تتقد، فقال: ((**أَهْرِيْقُوا عليَّ سبع قِرَبٍ من الماء، حتى أَخْرُجَ إلى الناس**)) فَصَبُوا عليه من الماء، ثم دخل المسجد وهو معصوب الرأس، وهو بين عليٍّ والعباس يتكئ عليهما، ورِجْلَاه تَخُطَّان في الأرض من شدة المرض، فأجلساه على المنبر فخطب الناس، وكان مما قال: ((**لعنَةُ الله على اليهود والنصارى ؛ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، اللهم لا تجعل قبري وثنًا يُعبد، ... يا أيها الناس من سببتُهُ أو شتمتُهُ أو أخذتُ من ماله فليقتص مني الآن قبل ألا يكون درهم ولا دينار، أيها الناس من كنت جلدت له ظهرًا فهذا ظهري فليستقد منه، ومن كُنت شتمتُ له عِرضًا فهذا عِرضِي فَلْيَسْتَقِد منه**)) يقول أنس: فنظرت إلى الناس كلٌّ واضعٌ رأسه بين رجليه من البكاء، وهم يقولون: "فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله".

ثم نزل فصلَّى الظهر بالناس، ثم رجع فأوصى الناس بالأنصار، ثم قال: ((**إن عبدًا خيَّره الله بين أن يؤتى من زهرة الدنيا ما شاء، وبين ما عند الله، فاختار ما عنده**)) فبكى أبو بكر وقال: " فديناك بأبائنا وأمهاتنا " يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه : " فعجبنا لبكاء أبي بكر وقوله، وعلمنا فيما بعد أن المخيَّر هو رسول الله ـ ﷺ ـ وأن أبا بكر أعلمُنَا".

اشتداد المرض على خير الخلق صلى الله عليه وآله وسلم

قبل وفاة النبي ـ ﷺ ـ بأربعة أيام، أراد أن يصلي بالناس العشاء فاغتسل فقام ليذهب إلى المسجد فأغمي عليه ثم أفاق، فقام فاغتسل، وأراد القيام فأغمي عليه خمس مرات، كلما قام أغمي عليه بأبي هو وأمي، وفي الخامسة قال: ((**مُروا أبا بكر فليصلِّ بالناس**)).

وفي يوم السبت، قبل وفاته بيومين، خرج ـ ﷺ ـ وأبو بكر يُصلي بالناس الظهر فلما رآه أراد أن يتأخر فأومأ إليه وجلس بجانبه، وجعل أبو بكر يصلي وهو قائم بصلاة رسول الله ـ ﷺ ـ والناس يُصلُّون بصلاة أبي بكر.

وقبل وفاته بيوم، أعتق غلمانه، وتصدَّق بسبعة دنانير كانت عنده، ووهب أسلحته للمسلمين، وكانت دِرعه مرهونةٌ عند يهودي بثلاثين صاعًا من الشعير.

وفي يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، يوم وفاته ﷺ، وعند صلاة الفجر كشف سِتْرَ حُجرة عائشة، ونظر إلى الناس وهم يُصلُّون، فهمَّ المسلمون أن يُفتنوا في صلاتهم فرحًا واستبشارًا ظنًا أنه قد برئ من المرض، فأشار بيده أن أتمّوا صلاتكم، ثم أرخى الستر.

وعند الضحى دعا ابنته فاطمة وأسرَّ إليها بأنه يُقبض في وجعه ذلك، وبأنها أولُ أهله لحوقًا به، وأنها سيدة نساء الجنة، ولما رأت فاطمةُ ما بأبيها قالت : " واكَرب أبتاه " فقال: ((**ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم**)). ثم طلب الحسنَ والحسين فقبَّلهما، وأوصى بهما خيرًا، ودعا أزواجه فوعظهن وذكَّرهن.

وفاة سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم

طَفِقَ الوجَعُ يشتدُّ على رسول الله ﷺ، وظهر أثرُ السُّمِ الذي وضعته له اليهودية في خيبر فكان يقول: ((**يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخيبر، فهذا أوان انقطاع أبهري من ذلك السم**)).

وبدأت سكرات الموت تعالج رُوحَه الشريفةَ، وكان يُرددُ بين الفينة والأخرى: ((**الصلاة، الصلاة وما ملكت أيمانكم**)) وكان بين يديه ركوةُ ماءً يدخل يديه الشريفتين فيها ويمسح بهما وجهه، ويقول: ((**لا إله إلا الله إن للموت لسكرات**)) وأسندته عائشة - رضي الله عنها - إلى حجرها، ودخل عليه عبدالرحمن بن أبي بكر وفي يده سواك، فشخص إليه رسول الله - ﷺ - ببصره، فعلمت عائشة - رضي الله عنها - أنه يريد السواك، فتناولته وقضمته ولينته له فاستاك به - ﷺ - كأشد ما كان يتسوك به في حياته.

تقول عائشة: " فعندما فَرَغَ منه رفع يده، وشخص ببصره نحو السقف، وتحركت شفتاه فأصغت إليه وهو يقول: ((**اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى، اللهم في الرفيق الأعلى**)) ثم مالت يده ولحق بالرفيق الأعلى ضحى يوم الاثنين، الثاني عشر من ربيع الأول، سنة إحدى عشرة للهجرة، وقد تم له ثلاث وستون سنة .

كيف تلقى الناس خبر وفاة رسولهم ﷺ؟

قال ابن رجب: "لما توفي رسول الله ـ ﷺ ـ اضطرب المسلمون، فمنهم من دُهش فخُولطَ، ومنهم من أُقعد فلم يُطق القيام، ومنهم من اعتُقِلَ لسانه فلم يُطق الكلام، ومنهم من أنكر موته بالكلية".

وأقبل أبو بكر ـ رضي الله عنه ـ حين بلغه الخبر، فدخل على رسول الله ـ ﷺ ـ وهو مسجى في ناحية البيت، فأقبل حتى كشف عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم أقبل عليه فقبله، ثم رد البرد على وجه رسول الله ﷺ، ثم خرج وعمر يُكلم الناس، فقال : " على رسلك يا عمر أنصت " فأبى إلا أن يتكلم، فأقبل أبو بكر على الناس، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : " أيها الناس إنه من كان يعبد محمدًا، فإنَّ محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله، فإن الله حي لا يموت". ثم تلا قوله تعالى: ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾

فَهَدَأَ الناس، قال عمر رضي الله عنه : "والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكرٍ تَلاها، فَعَقَرتُ حتى وقعتُ إلى الأرض ما تحملُني رِجْلَاي، وعَرفت أن رسول الله ـ ﷺ ـ قد مات".

وتم تغسيل الرسول ﷺ، وكُفِّنَ، ودُفن في حجرة زوجته عائشة رضي الله عنها . وبعد وفاة الرسول ـ ﷺ ـ أجمع المسلمون على اختيار أبي بكر الصديق ـ رضي الله عنه ـ خليفة للمسلمين، فكان أول الخلفاء الراشدين .

من دلائل النبوة

سُئل أعرابي: بم عرفت أن محمدًا رسولُ الله؟ فقال: " ما أمر بشيء فقال العقل: ليته نهى عنه، ولا نهى عن شيء فقال العقل: ليته أمر به ".

والناظر في دعوة نبينا محمد ـ ﷺ ـ يجد أن صدقه ـ ﷺ ـ بيِّنٌ واضحٌ، لا ينكره إلا مكابر، فالنبيُ الأميِّ الذي لم يقرأْ ولم يكتب، يتحول إلى معلم للبشرية، يعلمهم الكتاب والحكمة .

ومما يبين صدقَ الأنبياء والرسل، نَصرُ الله لهم، وتأييدهُ إيَّاهم، فإنه من المحال أن يدَّعي بشرٌ أنه مرسل من عند الله ـ عز وجل ـ وهو كاذب في دعواه، ثم يؤيده الله، وينصره، ويُرسل الملائكة لتثبيته وحمايته، ولا يُعذبه، ويهتكُ سِترَه، ويفضحُ أمره، ويجعله عِبرةً لغيره، كما كان في حال مسليمة الكذاب، والأسود العنسي والدجال.

كذلك شهادة قومه له، فقد كان المشركون يُسمُّون النبي ـ ﷺ ـ الصادق الأمين قبل بعثته، بل كانوا يضعون ودائعهم عنده لعلمهم بأمانته، وثقتهم به.

وزهد الرسل في متاع الحياة الدنيا وعَرَضِها الزائلِ، دليلٌ على صدقهم فهم لا يسألون الناس أجرًا، وقد كان نبينا ـ ﷺ ـ أزهد الناس، حيث عاش حياته متخففًا، ينفق كل ما يأتيه، ولا يدخر لنفسه شيئًا.

صِفَاتُ النبي ـ ﷺ ـ الخَلْقية

كان رسول الله ـ ﷺ ـ وسطًا، فلم يكن بالطويل البائن، ولا بالقصير. بعيدًا ما بين المنكبين، متناسب الأعضاء، رحب الصدر، وكان أحسنَ الناس وجهًا، أبيضَ مشربًا بحُمرة، مستدير الوجه، أكحل العينين، دقيق الأنف، حسن الفم، كث اللحية.

وكان طَيِّب الرائحة، ليِّن الملمس، قال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه: " ما شممت عنبرًا قطُّ، ولا مسكًا، ولا شيئًا أطيب من ريح رسول الله ﷺ، ولا مَسِستُ شيئًا قطُّ ديباجًا ولا حريرًا ألين مسًّا من رسول الله ﷺ "(١).

وكان طلْقَ الوجه، دائم التبسم، حَسن الصوت، قليل الكلام . قال عنه أنس بن مالك رضي الله عنه : " كان أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس "(٢) .

وكان له خاتم النبوة بين كتفيه، وهو شئ بارز في جسده ـ ﷺ ـ كالشامة، فعن جابر بن سمرة قال: " ورأيت الخاتم عند كتفه مثل بيضة الحمامة، يشبه جسده " (٣) .

---

١ - رواه مسلم
٢ - رواه البخاري ومسلم
٣- رواه مسلم

الحِكمَةُ من أمِّيَّةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم

لقد آتى الله ـ سبحانه وتعالى ـ نبيه محمدًا ـ ﷺ ـ من العلم والحكمة ما لم يُؤته أحدًا من الأولين والآخرين، وهو أمِّيٌ لا يقرأ ولا يكتب، ولا معلم له من البشر، جاء بهذا القرآن من عند الله، الذي قال الله تعالى فيه: ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾ ﴾ [الإسراء]، وفي نشأته ـ ﷺ ـ أميٌّ قطعٌ للطريق على المكذبين أنه كتب القرآن، أو تعلمه، أو قرأه من مصادر الأولين.

وأمية الرسول ـ ﷺ ـ صفة كمال في حقه ﷺ، ومعجزة من معجزاته الشريفة، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا كُنتَ تَتْلُوا۟ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ ۖ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ ﴾ [العنكبوت].

فلو كان ـ ﷺ ـ يكتب ويقرأ قبل أن يوحى إليه ؛ لشك الناس في أمره، أو لقالوا: إنه تعلَّم هذه العلوم عن طريق القراءة والكتابة، مع أن ما جاء به من علوم ومعارف، وحِكم، وتشريعاتٍ لا يستطيع عالم قارئ كاتب تحصيلها، فكيف بأمِّي لا يكتب ولا يقرأ، فأُمِّيَّتُهُ ـ ﷺ ـ معجزة في حقه، وإن عُدَّت منقصة في حق غيره. فقد جاء بما أعجز جميع الخلق إنسهم وجنهم أن يأتوا بمثله، فكان ذلك آيةً ظاهرةً، وحُجَّةً بالغةً، ودليلًا واضحًا من دلائل نبوته ﷺ.

حقوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم

للنبي الكريم ـ ﷺ ـ حقوق كثيرة على أمته، منها:

أولًا: الإيمان الصادق به ﷺ ، وتصديقه فيما أتى به. والإيمان به ﷺ، هو : تصديق نبوته، وأن الله أرسله للجن والإنس، وتصديقه في جميع ما جاء به، ومطابقة تصديق القلب بذلك شهادة اللسان .

ثانيًا: وجوب طاعته ﷺ، والحذر من معصيته .

ثالثًا: اتِّباعُه ﷺ، واتخاذه قدوة في جميع الأمور، والاقتداء بهديه.

رابعًا: محبته ـ ﷺ ـ أكثر من الأهل، والولد، والوالد، والناس أجمعين.

وعلامات محبته ـ ﷺ ـ تظهر في الاقتداء به، واتباع سنته، وامتثال أوامره، واجتناب نواهيه، والتأدب بآدابه، في الشدة والرخاء، وفي العسر واليسر.

خامسًا: الصلاة عليه ﷺ، ومن مواطن ذلك: الصلاة عليه ـ ﷺ ـ عند دخول المسجد، وعند الخروج منه، وبعد إجابة المؤذن، وعند الدعاء، وفي التشهد في الصلاة، وفي صلاة الجنازة، وفي يوم الجمعة، وفي الخطب، وغير ذلك من المواطن.

سادسًا: إنزاله منزلته بلا غلو ولا تقصير، فهو عبد الله ورسوله، وهو أفضل الأنبياء والمرسلين، وسيد الأولين والآخرين، وهو صاحب المقام المحمود، والحوض المورود، ولكنه مع ذلك بشرٌ لا يملك لنفسه، ولا لغيره ضرًّا ولا نفعًا إلا ما شاء الله.

رحمةُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأمته

تَلا النبيُّ ـ ﷺ ـ قول الله ـ عز وجل ـ في إبراهيم: ﴿ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ ﴾ وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ فرفع يديه وقال: ((**اللهم أمتي أمتي**)) وبكى، فقال الله عز وجل :" يا جبريل اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فاسأله ما يبكيك ؟" فأتاه جبريل عليه السلام فسأله، فأخبره رسول الله ـ ﷺ ـ بما قال، وهو أعلم، فقال الله:" يا جبريل، اذهب إلى محمد فقل : إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك "(١).

وعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قيل يا رسول الله، ادع على المشركين، قال: ((**إني لم أبعث لعانًا، وإنما بعثت رحمة**))(٢).

ولما مَرِضَ الغُلام اليهودي الذي كان يخدمه، زاره فعرض عليه الإسلام فأسلم، فخرج وهو يقول: ((**الحمد لله الذي أنقذه من النار**))(٣).

وحينما صلى الليل، وصلى الناسُ بصلاته، امتنع عن الخروج إليهم خشية أن تُفرض هذه الصلاة على أمته فلا يطيقوها.

ثم هاهو ـ ﷺ ـ يدعو ربه تبارك وتعالى، فيقول: ((**اللهم من ولي من أمر أمتي شيئًا فشق عليهم فاشقق عليه، ومن ولي من أمر أمتي شيئًا فرفق بهم فارفق به**))(٤).

---

١ – رواه مسلم
٢ – رواه البخاري
٣ – رواه البخاري
٤ – رواه مسلم

مظاهر حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم

محبةُ الرسول ـ ﷺ ـ أصلٌ عظيم من أصول الدين ، بل إن إيمان العبدِ مُتوقف على وجود هذه المحبة ، فلا يدخل المسلم في عِداد المؤمنين الناجين حتى يكون الرسول ـ ﷺ ـ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، ومن ولده، ووالده، والناس أجمعين ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [التوبة: ٢٤]

وفي الصحيحين عن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ﷺ : ((**لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**)).

وهذه المحبة وإن كانت عملًا قلبيًّا ، إلا أن آثارها ودلائلها لابد وأن تظهر على جوارح الإنسان ، وفي سلوكه وأفعاله ، فالمحبة لها مظاهر وشواهد تميز المحب الصادق من المدعي الكاذب ، وتميز من سلك مسلكًا صحيحًا ممن سلك مسالك منحرفة في التعبير عن هذه المحبة .

ومن هذه الدلائل طاعتهُ ـ ﷺ ـ واتِّباعُه ، ومنها تعظيمه وتوقيره والأدب معه، ومنها الاحتكام إلى سنته وشريعته، ومن الدلائل أيضًا الذَّبُّ عنه ، والدفاع عن سنته.

حبُّ الصحابة للنبي ﷺ (١)

لقد كان حبُّ الصحابة للنبي ـ ﷺ ـ عظيمًا، فقد كانوا يحبونه أكثر من حبهم لأنفسهم وبَنِيْهِم وما يملكون . فهو الذي أخرجهم الله به من ظلمات الكفر إلى نور الإسلام، والقصص التي تروى لنا عن حب الصحابة للرسول ـ ﷺ ـ كثيرة جدًا، فمن ذلك:

أنه لما أجمعت قريش على صلب الصحابي الجليل خبيب بن عدي رضي الله عنه ، قال له أبو سفيان : " أَيَسرُك أنَّ محمدًا عندنا نضرب عنقه، وأنك في أهلك ؟ " فقال : " لا والله، ما يسرني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه ".

وفي معركة أُحد، أُشيع أن النبي ـ ﷺ ـ قتل ؛ فخرجت امرأة من الأنصار فأَخبروها بمقتل أبيها وابنها وزوجها وأخيها. فقالت: " ما فعل رسول الله ﷺ ؟ " فأخبروها أنه بخير، فقالت : " أروني أنظر إليه " فلما رأت رسول الله ﷺ، أخذت بناحية ثوبه، ثم قالت: " بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا أبالي إذا سلمت ".

وجاء رجل إلى النبي ـ ﷺ ـ فقال: " يا رسول الله، إنك لأحب إليَّ من نفسي، وأحب إليَّ من أهلي، وأحب إليَّ من ولدي، وإني لأكون في البيت فأذكرك فما أصبر حتى آتيك فأنظر إليك".

حبُّ الصحابة للنبي ﷺ (٢)

مما يغرس حبَّ النبي ـ ﷺ ـ وتعظيمه في قلوبنا تَذَكُّر حرصه على أمَّته، ورأفته ورحمته بهم، وما لاقاه ـ ﷺ ـ من الأذى والشدة في سبيل إيصال الحق إلينا.

فمن حرص هذا النبي الكريم على أمته أنه ادَّخر دعوته المستجابة ليوم القيامة كي يشفع بها لهم، قال ﷺ: ((**لكل نبى دعوة قد دعا بها فاستجيب، فجعلت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**)) كما أنه يقف يوم القيامة عند الصراط يدعو لأمته وهم يجتازونه، قائلًا : ((**يارب سلِّم، يارب سلِّم**)) .

وكان من عظيم حب الصحابة للنبي ـ ﷺ ـ صدق الامتثال لأمره فعن عبد الرحمن بن أبي ليلى، أن عبد الله بن رواحة ـ رضي الله عنه ـ أتى النبي ـ ﷺ ـ ذات يوم وهو يخطب، فسمعه وهو يقول : ((**اجلسوا**)) فجلس مكانه في خارج المسجد حتى فرغ النبيُ ـ ﷺ ـ من خطبته .

وعندما سُئل عليُّ بنُ أبي طالب رضي الله عنه : " كيف كان حُبُكم لرسول الله ﷺ ؟ " قال : " كان والله أحبَّ إلينا من أموالنا، وأولادنا، وآبائنا، وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ ".

وفي غزوة أحد، أخذ طلحة الأنصاري يحمي الرسول ﷺ، ويتقي سهام العدو وضرباتهم بجسمه خوفًا من أن تصيب رسول الله ﷺ، ويقول: " لا تشرف يصبك سهم من سهام القوم، نحري دون نحرك ".

تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع اليهود

تعايش النبي ـ ﷺ ـ مع ثقافات مختلفة، وعقائد متعددة، وأجناس متنوعة بصدر رحب ودون أية محاولة منه للمساس بهذه الثقافات. ومن أمثلة ذلك : تعايشه ـ ﷺ ـ مع اليهود في المدينة منذ قدومه من مكة بكل سلام، وكان يعاملهم بأخلاقيات الإسلام، فيزور مريضهم، ويتحمل إساءات جاره اليهودي الكثيرة، ويقوم لجنازة رجل يهودي، فقد مرت عليه جنازة يهودي، فقام النبي ـ ﷺ ـ لها، فقيل له: إنها جنازة يهودي فقال ﷺ: ((**أليست نفسًا ؟**)) .

ومنذ قدومه إلى المدينة كان حريصًا على عدم عداوة اليهود، بل وقَّع معهم عهدًا مما يدل على رغبته في العيش بسلام مع الطرف الآخر، كما كان ـ ﷺ ـ يحرص على دعوتهم إلى الإسلام، ولا يفوت فرصة يمكن أن يبلغهم فيها دين الله تعالى إلا وفعل .

وكان يدعو لهم بالهداية وصلاح البال، فعَنْ أَبِي موسى ـ رضي الله عنه ـ قالَ : " كَانَ اليهود يتعاطسون عند النبي ـ ﷺ ـ يرجون أن يقول لهم: يرحمكم الله، فيقول: ((**يهديكم الله ويصلح بالكم**)).

لكنهم حينما خانوا العهود، ونقضوا المواثيق، قاتلهم، وأجلاهم عن ديارهم، كما كان يعاقب المعتدي منهم ويقيم عليه حد الله .

تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع النصارى

لما توسعت رقعة الدولة الإسلامية، كانت هناك مجموعة كبيرة من القبائل النصرانية العربية، وبخاصة في نجران، فتعامل معهم النبي ـ ﷺ ـ تعاملًا حسنًا، وعقد معهم معاهدات من شأنها أن تُؤَمِّنَ لهم العيش بسلام في ظل الدولة الإسلامية، وتُؤَمِّنَ لهم حرية ممارسة شعائر دينهم، وتكفل لهم كامل الحريات.

فلقد جاء في معاهدة النبي ـ ﷺ ـ لأهل نجران: "ولنجران وحاشيتها جوار الله وذمة محمد النبي رسول الله، على أموالهم، وأنفسهم، وأرضهم، وملَّتهم، وغائبهم، وشاهدهم ..." إلى آخر ما جاء في هذه المعاهدة من حفظ لحقوق نصارى نجران وعدم المساس بأمنهم.

كما كان نظام الدولة الذي نصت عليه وثيقة المدينة التي أصدرها النبي ـ ﷺ ـ يجعل غير المسلمين المقيمين فيها مواطنين لهم من الحقوق مثل ما للمسلمين، وعليهم من الواجبات مثل ما على المسلمين.

تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع المنافقين

كان النبي ـ ﷺ ـ يعلم بالمنافقين وأسمائهم، ويعرف جهودهم في بث روح الهزيمة في صفوف المسلمين، وحرصهم على انقسام المسلمين، ومع ذلك كان يُخالطهم، ويتعامل معهم، ويسمع منهم، ويرفق بهم راجيًا هدايتهم . كما لم يلجأ برغم قدرته عليهم إلى قتلهم، أو حرمانهم من حقوقهم، بل كان يسمح لهم بأن يدلوا بآرائهم في قضايا المجتمع، ويعطيهم نصيبهم من عطاء بيت المال .

كما كان يعاملهم بالرفق واللين، ويقابل إساءاتهم بالإحسان، يعاملهم على ظواهرهم ولا يبحث خباياهم وما تُكِنُّه سرائرهم، ومما يبين حقيقة ذلك، تعامله مع رأس المنافقين عبدالله بن أُبَيِّ بنِ سلول الذي آذه في عرضه، وتولى كِبْرَ حادثة الإفك، وحرص في غزوة أحد على خلخلة جيش المسلمين، حين رجع بثلث الجيش، وهو الذي قال: " لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ". وهو الذي كان يُخذِّل المسلمين عن المشاركة في غزوة تبوك، وكم حاول هو وأصحابه الغدر بالنبي ـ ﷺ ـ وقتله، ومع ذلك كله صلى عليه عند موته، ووهب قميصه لابنه كي يكفنه به، وكان يستغفر له، وللمنافقين حتى نهاه الله ـ سبحانه ـ عن ذلك.

تعامل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع المحاربين

الحرب في شِرعة رسول الله ـ ﷺ ـ لها آداب، وأحكام محفوفة بالرفق، والرحمة. فإذا اضطر ـ ﷺ ـ إلى خيار الحرب ؛ فلا يعني ذلك أن يتجرد من الرحمة، ويكونُ هدفُه سفكَ الدماءِ دون مُراعاة لعهد أو حُرمة؟

فمن الرفق ـ الذي أقام عليه الإسلام سياسته الحربية ـ أنه منع من التعرض بالأذى لمن لم يَنْصِبوا أنفسهم للقتال كالرهبان، والفلاحين، والنساء، والأطفال، والشيخ الهرِم، والأجير، والمعتُوه، والأعمى، والزَّمِن.

ومن أدب الحرب في الإسلام الوفاءُ بتأمين المحارب ؛ فإذا أعطى أحدُ الجند الأمان لأحد المحاربين، وجب احترام هذا التأمين، ولا يجوز لأحد أن يتعرض لذلك المحارب بأذى، وإلى هذا يشير قوله -صلوات الله عليه-: ((**ويسعى بذمتهم أدناهم**)).

وحين قَدِمَ أبو رافع بكتاب من قريش إلى رسول الله ـ ﷺ ـ و رأى رسول الله، أُلقِيَ في قلبه الإسلامُ، فقال: " يا رسول الله: إني ـ والله ـ لا أرجع إليهم أبدًا ". فقال رسول الله ﷺ: ((**أما إني لا أخيسُ بالعهد، ولا أحبسُ البُرُدَ، ولكن ارجع، فإن كان في قلبك الذي في قلبك الآن، فارجع**)). قال: فرجعت، ثم أقبلت إلى رسول الله ﷺ، وأسلمت .

إنما المؤمنون إخوة

أكَّد النبي ـ ﷺ ـ كثيرًا على أهمية الأُخوَّةِ بين المسلمين ووجوب الترابط بينهم، ونهى عن الشحناء والبغضاء، والشقاق والخلاف والفرقة، وحذَّر من جميع الخصال التي توجب الفرقة، والبغضاء، والتباعد بين المسلمين، كما رغَّب في القيام بحاجة المسلم، ومساعدته، ونصحه، وإعانته في جميع أحواله .

فحين نتأمل أقوال النبي ـ ﷺ ـ وأوامره ، وأفعاله، نجد في ذلك دعوة مفتوحة لنشر الحب والمودة بين المؤمنين، فها هو يؤكد أن الحب الإيماني وسيلة وطريقٌ إلى الجنة، فقال ﷺ: ((**لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابوا، أولا أدلّكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم**)).

و يخبرنا كذلك ـ ﷺ ـ أنه متى كان المسلم حريصًا على مصلحة أخيه، قائمًا بحاجته، طالبًا لمرضاة ربه، ونفع إخوانه المسلمين ؛ فليبشر ـ بحسن الثواب، وعظيم الجزاء ؛ وذلك بأن يكون الله في حاجته يقضيها له وييسرها ويسهل أمرها.

ليس ذلك فحسب، بل إن الإيمان كما يبينه رسول الله ـ ﷺ ـ مقترن بحب الآخرين وحب الخير لهم، قال ﷺ : ((**لا يُؤمن أحدكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبُّ لنفسه**)).

إنما المؤمنون إخوة (٢)

كان النبي ـ ﷺ ـ دائم الحرص على غرس المحبة، ونشر الرحمة والمودة بين المسلمين ، شديد الحرص على إرساء قواعد الحب في قلوب الناس، فقد أخبر أنه كلما زاد حبنا للمؤمنين حبًّا لله وفي الله، فُزنا بحب الله لنا، قال ﷺ: ((**ما تحابَّ رجلان في الله إلا كان أحبُهما إلى الله ـ عز وجل ـ أشدَهما حبًّا لصاحبه**)).

وفي الحديث الذي رواه أبو هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن النبي ـ ﷺ ـ قال: ((**تهادوا تحابوا**)) يعلمنا ـ ﷺ ـ وسائل وأساليب من شأنها أن ترقق القلوب، وتجعلها ألين وأقدر على استيعاب مشاعر الحب من الآخرين.

وكان من أول الأعمال التي قام بها النبي ـ ﷺ ـ حين قدم المدينة أن آخى بين المهاجرين والأنصار، حرصًا على أن يسود الحب والوئام بين المسلمين، وتتوطد العلاقة الأخوية بينهم، ولا رابط بينهم في ذلك إلا أخوَّة الإسلام.

ولإشاعة المحبة، وتأليف القلوب، وزيادة الروابط الأخوية، يعلمنا النبي ـ ﷺ ـ أنه إذا أحب أحدنا أخاه فليُعلمه أنه يحبه . ويعلمنا النبي ـ ﷺ ـ أيضًا أن من حقوق الأخوُّة والمحبة : تجنب إساءة الظن بالمسلمين، والحذر من التجسس عليهم، وتتبع عوراتهم، والبحث عن زلاتهم .

صِفاتُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله ـ ﷺ ـ أشجَعَ النَّاسِ، قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " كنا إذا اشتدَّ البأسُ، ولَقيَّ القومُ القومَ، اتَّقينا برسول الله ﷺ " وكان أسخى الناس، ما سُئل شيئًا قطُّ فقال: " لا " وكان أحلم الناس، وكان لا ينتقم لنفسه، ولا يغضب لها، إلا أن تُنتهك حُرُمَات الله، فيكون لله ينتقم، كما كان عادلًا فالقريب والبعيد، والقوي والضعيف عنده في الحق سواء، وقد أكَّد أنه لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى، وأن الناس سواسية، وأن سبب هلاك الأمم السابقة أنه إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وقال: ((**والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها**)).

ولم يكن يعيب طعامًا قطُّ، إن اشتهاه أكله، وإن لم يشتهه تركه، وكان يأتي على آل محمد الشهر والشهران لا يوقد في بيتهم نار، وإنما كان قوتهم التمر والماء، وكان يَعْصِبُ على بطنه الحجر والحجرين من الجوع، وكان يخصف النعل، ويرقع الثوب، ويساعد أهله في عمل البيت، وكان رحيمًا برًّا يعود المرضى، ويجيب من دعاه من غني أو فقير، أو دني أو شريف، وكان يحب المساكين، ويشهد جنائزهم، ويعود مرضاهم، لا يحقر فقيرًا لفقره، ولا يهاب ملكًا لملكه. وكان يركب الفرس، والبعير، والحمار، والبغل، وكان يُحب الطِّيب، ويكره الرائحة الكريهة .

مِن أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم

كان رسول الله ـ ﷺ ـ أكثر الناس تبسمًا، وأحسنهم بِشرًا، مع كثرة ما يصيبه من الأحزان والمصائب، وقد جمع الله له كمال الأخلاق ، ومحاسن الأفعال، ويكفيه شهادة الحق ـ تبارك وتعالى ـ له، حيث قال: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾ [القلم]، وسئلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن خلقه، فقالت: " كان خُلُقه القرآن ". فقد امتثله في أوامره ونواهيه .

فهو سيد المتواضعين، بعيدٌ عن الكبر والتعالي على الخلق، فهو الذي يقول: ((**لا تُطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبدالله ورسوله**))(١) .

وهو أحلمُ الناس، يعفو عن المسيء، لا يغضب لنفسه، أو لفوات حقه، يتلطف مع المخطئ، ويصبرُ على الأذى، ويُعَلمُ الجاهل، قال أنس بن مالك رضي الله عنه : " خدمت رسول الله ـ ﷺ ـ عشر سنين، والله ما قال لي أُفًّا قطُّ، ولا قال لشيء لمَ فعلتَ كذا، وهلا فعلت كذا "(٢).

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: " ما ضرب رسول الله ـ ﷺ ـ شيئًا قطُّ بيده، ولا امرأةً، ولا خادمًا، إلا أن يجاهد في سبيل الله، وما نِيْلَ منه شيءٌ قطُّ فينتقم من صاحبه، إلا أن يُنتهك شيءٌ من محارم الله فينتقم لله عز وجل "(٣)

١- رواه البخاري

٢- رواه البخاري و مسلم

٣- رواه مسلم

تعليم الرسول ـ ﷺ ـ لأصحابه

من مظاهر تعليم الرسول ـ ﷺ ـ لأمته استعمال الحلم والأناة في التعليم، فقد جاء في صحيح مسلم، من حديث أنس ـ رضي الله عنه ـ قال:" بينما نحن في المسجد مع رسول الله ـ ﷺ ـ إذ جاء أعرابيٌ، فقام يبول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: " مَهْ، مَهْ "، قال:" قال رسول الله ﷺ : ((**لا تُزرِمُوهُ دعوه**))، فتركوه حتى بالَ، ثم إن رسول الله - ﷺ - دعاه، فقال له: ((**إن هذه المساجدَ لا تَصلُحُ لشيء من هذا البول ولا القذر، وإنما هي لذكر الله عز وجل، والصلاة وقراءة القرآن** ". قال: فأمر رجلًا من القوم، فجاء بدلو من ماء، فشنَّهُ عليه ".

وفي لفظ البخاري: ((**دعوه وهَرِيقوا على بوله ذنوبًا من ماء، فإنما بُعثتم ميسرين، ولم تُبعثوا معسرين**)).

وهنا ندرك حُسن خلق النبي ﷺ، ورأفته بأتباعه ولطفه بهم، مع ما وقع من هذا الأعرابي من سلوك شائن، كما يتضح التوجيه النبوي الكريم إلى وجوب الرفق بالجاهل، وعدم تعنيفه، وأنه يجب التفريق في المعاملة بين من يقع في المنكر وهو عالم به مصر عليه، وبين من يقع فيه وهو جاهل به، وأن الداعية والعالم ينبغي أن يكون ميسرًا لا معسرًا، في حدود الشرع.

النبي المعلم صلى الله عليه وآله وسلم

يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾

عن معاوية بن الحكم السلمي ـ رضي الله عنه ـ قال: "بينا أنا أصلي مع رسول الله ﷺ، إذ عَطَسَ رجلٌ من القوم، فقلت: يرحمك الله! فرماني القومُ بأبصارهم. فقلتُ: واثكلَ أُمِّيَاه! ما شَأْنُكُم تنظرون إليَّ؟. فجعلوا يضربون بأيديهم على أفخاذهم. فلما رأيتهم يصمتونني. لكنِّي سَكَتُّ. فلما صلى رسول الله ﷺ، فبأبي هو وأُمي! ما رأيتُ مُعلمًا قبله، ولا بعده، أحسنَ تعليمًا منه. فوالله! ما كَهَرَنِي، ولا ضَرَبَنِي، ولا شَتَمني، قال: ((**إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس. إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن**))[١].

يقول الإمام النووي حول هذا الحديث: " أن فيه بيان ما كان عليه رسول الله ـ ﷺ ـ من عِظَم الخُلُق، الذي شهد الله تعالى له به، ورفقه بالجاهل، ورأفته وشفقته عليه، وفيه حثٌ على التَّخلُقِ بخُلُقِهِ ـ ﷺ ـ في الرفق بالجاهل، وحسن تعليمه، واللطف به، وتقريب الصواب إلى فهمه".

١- صحيح مسلم

من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم (١)

إنَّ أعظم معجزات النبي ـ ﷺ ـ هو القرآن الكريم، المعجزة الباقية إلى قيام الساعة، الذي أعجز الفصحاء، وأدهش البلغاء، وتحدى الله جميع الخلق أن يأتوا بعشر سور من مثله، أو يأتوا بسورة ، أو حتى يأتوا بآية من مثله، وقد شهد المشركون بإعجازه.

ومن معجزاته : أنَّ المشركين سألوه يومًا أن يريهم آية، وأصروا على أن يشق لهم القمر نصفين تحديًا وعنادًا، فدعا ربه ؛ فانشق القمر حتى صار فِلْقَتين .

ونَبَعَ الماء من بين أصابعه مراتٍ عديدةٍ، ودعا الله في مرات عديدة أن يسقيهم، فاستجاب الله له، كما في الحديبية، وفي غزوة تبوك حين عطش المسلمون، ولم يجدوا ما يشربونه، فكان من معجزاته أن نبع الماء وكانت الآبار التي أتوها جافة لا ماء فيها.

و سمع الصحابة تسبيح الحصا في كفه ﷺ، ثم وضعه في كف أبي بكر فسبَّح، ثم في كف عمر، ثم في كف عثمان رضي الله عنهم .

وكانوا يسمعون تسبيح الطعام عنده ـ ﷺ ـ وهو يؤكل، وتسليم الحجر والشجر عليه، وكلمه ذراع الشاة المسمومة الذي أهدته إليه المرأة اليهودية يوم فتح خيبر تريد قتله بالسم، وسأله أعرابي أن يريه آية، فأمر شجرة، فجاءت إليه، ثم أمرها فرجعت إلى مكانها .

من معجزات الرسول ﷺ (٢)

من معجزات النبي ـ ﷺ ـ أنه تكرر أن مسح ضرع شاة ليس فيه لبن فاجتمع فيه اللبن، فحلب وشرب وسقى من عنده . وتفل في عيني علي بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ وهو أرمد، فبرأ من ساعته، وأصيبت رِجلُ أحد الصحابة، فمسحها فبرأت من حينها، ودعا لأنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ بطول العمر وكثرة المال والولد، وأن يبارك الله له فيه، فوُلِد له مئة وعشرون ولدًا، وكان نخله يحمل في السنة مرتين، والمعروف في النخل أنه يحمل مرة واحدة في السنة، وعاش مئة وعشرين سنة .

ومن معجزاته ﷺ، أنه شُكيَ إليه شِدة القحط وهو على المنبر، فدعا الله ـ عز وجل ـ وما في السماء سحابة، فثار السحاب أمثال الجبال، وهطل مطر غزير إلى الجمعة الأخرى، حتى شُكي إليه من كثرة المطر، فدعا الله ـ عز وجل ـ فتوقف المطر، وخرج الناس يمشون في الشمس.

ومن معجزاته ـ ﷺ ـ أنه أطعم الجيش من مزودة أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ حتى شبعوا، وخرج على مئة رجلٍ من قريش وهم ينتظرونه ليقتلوه، فحثا في وجوههم التراب، ومضى ولم يروه، وتبعه سُراقة بن مالك ليقتله، فلما اقترب منه، دعا عليه فغاصت أقدام فرسه في الأرض.

ومعجزاته ـ ﷺ ـ كثيرة لا يمكن أن تحصى، وما ذكر كان شيئًا منها.

مِزاحُهُ صلى الله عليه وآله وسلم

كان النبي - ﷺ - يمازح أصحابه، لكنه لا يقول إلا حقًّا، وكان يداعب أهله، ويعتني بصغار السن، ويجعل لهم جزءًا من وقته، ويعاملهم بما يطيقون ويفهمون، فقد كان يمازح خادمه أنس بن مالك - رضي الله عنه - فربما قال له أحيانًا: ((**يا ذا الأذنين**)) .

وجاء إليه رجل فقال : " يا رسول الله احملني ". فقال له النبي - ﷺ - مازحًا: ((**إنا حاملوك على ولد ناقة**)). قال : " وما أصنع بولد الناقة ؟". فقال النبي ﷺ: ((**وهل تلد الإبل إلا النوق**)) وكان - ﷺ - دائم التبسم والبِشر في وجوه أصحابه، لا يسمعون منه إلا الكلام الطيب، فعن جرير - رضي الله عنه - قال : " ما حجبني النبي - ﷺ - منذ أسلمت، ولا رآني إلا تبسم في وجهي، ولقد شكوت إليه أني لا أثبت على الخيل، فضرب بيده في صدري، وقال: ((**اللهم ثبته، واجعله هاديًا مهديًا**)) ؛ فما وقعت عن فرس بعد " .

كما كان - ﷺ - يمازح أقاربه، فقد جاء إلى بيت ابنته فاطمة فلم يجد زوجها عليٌ في البيت، فقال: ((**أين هو ؟**)) قالت: " كان بيني وبينه شيء فغاضبني فخرج " فجاءه رسول الله - ﷺ - وهو مضطجع في المسجد، قد سقط عنه رداؤه ؛ فأصابه تراب، فجعل رسول الله - ﷺ - يمسحه عنه وهو يقول: ((**قم أبا التراب، قم أبا التراب**)) .

تعامله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع الصغار

لقد كان للصغار نصيب وافر من خلقه العظيم، فقد كان يسابق زوجته عائشة ـ رضي الله عنها ـ ويُقر لعبها مع صواحبها، فعنها ـ رضي الله عنها ـ قالت : " كنت ألعب بالبنات عند النبي ﷺ، وكان لي صواحب يلعبن معي، فكان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا دخل اختفين منه فيرسلهن إليَّ فيلعبن معي " .

كما كان يعتني بالصغار ويداعبهم، ويتلطف معهم، فعن عبد الله بن شداد عن أبيه قال : " خرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ في إحدى صلاتي العشاء، وهو حامل حسنًا، أو حسينًا، فتقدم رسول ـ ﷺ ـ فوضعه، ثم كبَّر للصلاة، فصلى، فسجد سجدة فأطالها، قال أبي: فرفعت رأسي، وإذا الصبي على ظهر رسول الله ﷺ، وهو ساجد، فرجعت إلى سجودي، فلما قضى رسول الله ـ ﷺ ـ الصلاة قال الناس : يا رسول الله إنك سجدت سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر، أو أنه يوحى إليك " قال : ((**كل ذلك لم يكن، ولكنَّ ابني ارتحلني فكرهت أن أعجله حتى يقضي حاجته**)) . وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال : " كان النبي ـ ﷺ ـ أحسن الناس خلقًا، وكان يقول لأخ لي صغير : ((**يا أبا عمير، ما فعل النُغَير؟**))، والنغير طائر صغير كان يلعب به ذلك الطفل، وفي هذا الموقف تسلية لهذا الصغير .

معاملته لأهله صلى الله عليه وآله وسلم

لقد جمعت مُعاملةُ الرسول ـ ﷺ ـ لأهله مكارم الأخلاق، فقد كان ـ ﷺ ـ متواضعًا معهم، رحيمًا بهم، وكان في حاجة أهله دائمًا، ولا أدلَّ على هذا من الحديث الذي أورده الترمذي حيث يقول ﷺ : ((**خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلي**)).

وكان يحرص على العدل بين زوجاته، فيقسم بينهن في المبيت، والإيواء، والنفقة. وأما المحبة فكان يقول: ((**اللهم هذا قَسْمِي فيما أملك فلا تلمني فيما لا أملك**)). وكان ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ إذا شربت زوجته من الإناء أخذه، فوضع فمه في موضع فمها وشرب .

وكان إذا أراد السفر، أَقْرع بينهن، فأَيَّتُهُنَّ خرج سهمها خرج بها، ولما كان في مرضه استأذنهن أن يمرض في بيت السيدة عائشة فَأَذِنَ له.

وقد أورد البخاري ومسلم ـ رحمهما الله ـ قول عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ حول ما كان عليه أمرُ النساءِ في الجاهلية، حيث قال: " والله إنْ كُنَّا في الجاهلية ما نَعُدُ للنساء أمرًا حتى أنزل الله فيهن ما أنزل وقسم لهن ما قسم ".

أما رسول الله ـ ﷺ ـ فيضرب المثل الأعلى في حسن التعامل، وطيب العشرة، وإعطاء المرأة زوجةً، أو أمًّا، أو بنتًا، أو أختًا المكانة اللائقة، بل لقد جعل فضيلة الرجلِ وخيريته تقاس بحُسن معاشرته لأهله ومصاحبته إياهم.

رحمته صلى الله عليه وآله وسلم

يقول الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن نبيه الكريم: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧ ﴾

يظهر هذا الخُلُق الكريم جليًّا واضحًّا في مواقف النبي ـ ﷺ ـ مع الجميع، من صغير، أو كبير، ومن قريب، أو بعيد، فمن مظاهر شفقته ورحمته ﷺ، أنه كان يخفف في صلاته ولا يطيلها عند سماع بكاء صبي، ففي البخاري من حديث أبي قتادة رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ قال: ((**إني لأقوم في الصلاة أريد أنْ أطول فيها، فأسمع بكاء الصبي، فأتجوز في صلاتي، كراهية أنْ أشقَّ على أمه**)) .

وهو ـ ﷺ ـ القائل : ((**الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء**))، فحينما قَدِمَ الأقرع بن حابس، ورأى النبي ـ ﷺ ـ يُقَبلُ الحسن بن علي، قال الأقرع : " إن لي عشرةً من الولد، ما قبلت واحدًا منهم " فكان ردُّ الرسول الكريم ـ ﷺ ـ عليه: ((**من لا يَرْحَم، لا يُرحم**)).

ولعل من أدل المواقف على عظيم رحمته ﷺ، موقفه مع مشركي مكة يوم أن فتحها، أولئك القوم الذين آذوه، وآذوا أصحابه وعذبوهم، ومنعوه من نشر دينه، وحاصروه وضيقوا عليه، وعلى أصحابه، حتى اضطروهم إلى الفرار بدينهم، وترك وطنهم، ومساكنهم، وأموالهم، فكان تعامله معهم يوم أن أمكنه الله منهم، أن قال: ((**اذهبوا فأنتم الطلقاء**)).

صبره صلى الله عليه وآله وسلم (١)

إن الحديث عن صبره ﷺ، في حقيقة الأمر حديث عن حياته كلها، وعن سيرته بجميع تفاصيلها وأحداثها، فحياته ـ ﷺ ـ كلها صبر ومصابرة، وجهاد ومجاهدة، ولم يزل ـ ﷺ ـ في صبر ومصابرة، وعمل متواصل منذ أن نزلت عليه أول آية، وحتى آخر لحظة في حياته . ولقد عَرف رسول الله ـ ﷺ ـ طبيعة ما سيلقاه في هذا الطريق، من اللحظة الأولى لبعثته، وبعد أول لقاء بالمَلَكِ، حين ذهبت به خديجة ـ رضي الله عنها ـ إلى ورقة بن نوفل، فقال له ورقة : " يا ليتني كنت حيًّا إذ يخرجك قومك " فقال له ﷺ : ((**أو مخرجي هم ؟**)) قال : "نعم، فإنه لم يأت رجلٌ قطُّ بمثل ما جئت به إلا عودي" . فوطَّن نَفسَهُ منذ البداية على تحمل المشاقِّ، والإيذاء، والكيد، والعداوة .

ومن المواقف التي يتجلَّى فيها صبره ـ ﷺ ـ ما تعرض له من السخرية والاستهزاء الدائمين، وما تعرض له من أذى جسدي من قومه وأهله وعشيرته محاولين في ذلك منعه من أن يبلغ رسالة ربه .

وأشدُّ من ذلك، الأذى النفسي المتمثِّل في ردِّ دعوته وتكذيبه، واتهامه أنه كاهن، وشاعر، ومجنون، وساحر، وادعاء أن ما أتى به من آيات ما هي إلا أساطير الأولين، ومن ذلك ما قاله أبو جهل مستهزئًا : " اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ".

صبره صلى الله عليه وآله وسلم (٢)

لم يكن الأذى الذي تعرض له رسول الله ـ ﷺ ـ قليلًا، أو من فئة محدودة من الناس، بل كان الأذى يصيبه حتى من أقرب الناس إليه، فهذا عمهُ أبو لهب يتْبَعه حين يذهب إلى مجامع الناس وأسواقهم ليدعوهم، فيكذِّبه وينهاهم عن تصديقه، بينما كانت امرأته (أم جميل) تجمع الحطب والشوك وتلقيه في طريق النبي ﷺ، وهو صابر على أذيتهما .

و قد بلغ الأذى قمته حينما حُوصر ـ ﷺ ـ مع أصحابه ثلاث سنوات في شعب أبي طالب، حتى أكلوا ورق الشجر من شدة الجوع، ثم توالت عليه الآلام والأحزان حين فقد زوجته خديجة التي كانت تسليه وتعينه، كما يُفجأ أيضًا بموت عمه الذي كان يحوطه ويدافع عنه، ويُضاعف من حزنه أنه مات على الكفر .

وحينما يبلغ الأذى عليه من قومه غايته، يخرج مهاجرًا بعد عدة محاولات لقتله، وفي المدينة يبدأ الرسول ـ ﷺ ـ عهدًا جديدًا من الصبر والتضحية، وحياة فيها الكثير من الجهد والشِدَّة، فقد جاع وافتقر، حتى ربط على بطنه الحجر من شدة الجوع، يقول ﷺ : ((**قد أُخفت في الله وما يخاف أحد، ولقد أوذيت في الله وما يُؤذى أحد، ولقد أتت عليّ ثلاثون من بين يوم وليلة، ومالي ولبلال طعامٌ يأكله ذو كبد، إلا شيء يواريه إبط بلال**)) .

صبره صلى الله عليه وآله وسلم (٣)

لقد اتهم رسول الله ـ ﷺ ـ في عرضه، ولحقه الأذى من المنافقين وجهلة الأعراب، فقد روى البخاري عن عبد الله بن مسعود ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : " قسَّم رسول الله ـ ﷺ ـ قسمة، فقال رجل من الأنصار : والله ما أراد محمد بهذا وجه الله، قال ابن مسعود رضي الله عنه : فأتيت رسول الله ـ ﷺ ـ فأخبرته، فتمعر وجهه " وقال: ((**رحم الله موسى، لقد أوذي بأكثر من هذا فصبر**)) .

ومن المواطن التي صبر فيها النبي ﷺ، أيام موت أولاده وبناته، حيث كان له من الذرية سبعةٌ، توالى موتهم واحدًا تلو الآخر، حتى لم يبق منهم إلا فاطمة رضي الله عنها ، فما وهَنَ، ولا لانَ، ولكن صبر صبرًا جميلًا، حتى أُثر عنه يوم موت ولده إبراهيم قوله: ((**إن العين تدمع، والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون**)) .

عبادته صلى الله عليه وآله وسلم

كان النبي ـ ﷺ ـ مجتهدًا في عبادة ربه، دائم الذكر، والتفكر . بل كان حينما يصيبه الهم والحزن، أو تأتيه مصيبة ينادي بلالًا فيقول: ((**أَرِحْنَا بالصلاة يا بلال**)) .

كما كان يقوم الليل، فيطيل الصلاة والقيام حتى تتورم قدماه من طول القيام . يقرأ القرآن، ويردد الآيات، ويبكي حتى تبتل لحيته من كثرة البكاء، فتقول له زوجته عائشة رضي الله عنها : "يا رسول الله كيف تفعل هذا بنفسك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟" فيقول: ((**أفلا أكون عبدًا شكورًا ؟**)) . ويبقى أكثر الليل يناجي ربه، ويقرأ كتابه، ويتبتل إليه.

كما كان يكثر من الصيام، فكان يصوم في السفر والحضر، وفي الحر والبرد . يقول أبو الدرداء: " كنَّا في شدة الحر، حتى والله الذي لا إله إلا هو، إن أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة حرارة الشمس، وما فينا صائم إلا رسول الله وابن رواحة ".

أما الصدقة فقد كان النبي ـ ﷺ ـ كريمًا جوادًا، يبذل ويتصدق بكل ما لديه. يعطي عطاء من لا يخاف الفقر، لا يرد سائلًا قط . حين يسأله أحد شيئا لديه، لا يرده صفر اليدين، بل يعينه ويساعده. فكما يقول عنه أصحابه رضي الله عنهم : " ما سُئل رسول الله ـ ﷺ ـ شيئًا قط، فقال: لا ".

زُهْدُهُ صلى الله عليه وآله وسلم

لا يَصْدُقُ أن يُطلق وصف الزهد حقًّا إلا على من تيسر له أمر من الأمور، فأعرض عنه وتركه زهدًا فيه، وقد كان نبينا ـ ﷺ ـ أزهد الناس في الدنيا، وأقلهم رغبة فيها، مكتفيًا منها بالبلاغ، راضيًا فيها بحياة الشظف، مع أن الدنيا كانت بين يديه، ومع أنه أكرم الخلق على الله، ولو شاء لوهبه الله ما يشاء من الأموال والنعم.

وقد ذكر الإمام ابن كثير ـ رحمه الله ـ في تفسيره عن خيثمة أنه قيل للنبي ﷺ: " إن شئت أن نعطيك من خزائن الأرض ومفاتيحها ما لم نعطه نبيًّا قبلك، ولا نعطي أحدًا من بعدك، ولا ينقص ذلك مما لك عند الله " فقال ﷺ: ((**اجمعوها لي في الآخرة**)).

وأما حياته ـ ﷺ ـ ومعيشته فعجب من العجب، يقول أبو ذر رضي الله عنه:" كنت أمشي مع النبي ـ ﷺ ـ في حرَّة المدينة، فاستقبلَنا جبل أحدٌ، فقال : ((**ما يسرني أن عندي مثل أحد هذا ذهبًا، تمضي علي ثلاث وعندي منه دينار، إلا شيئًا أرصده لدين، إلا أن أقول به في عباد الله هكذا وهكذا وهكذا، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه**))، وكان يقول : ((**ما لي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة، ثم راح وتركها**)) .

طعامه ولباسه صلى الله عليه وآله وسلم

كان يمر عليه ـ ﷺ ـ الشهرُ، والشهران، والثلاثة وما تُوقد في بيته نار، وإنما هما الأسودان (التمر والماء) وربما ظل يومه يتلوى من شدة الجوع وما يجد ما يملأ به بطنه، وكان أكثر خبزه من الشعير، وما أُثر عنه ـ ﷺ ـ أنه أكل خبزًا مرققًا أبدًا، بل إن خادمه أنس ـ رضي الله عنه ـ ذكر أنه لم يجتمع عنده ـ ﷺ ـ غداء ولا عشاء من خبزٍ ولحم إلا حين يأتيه الضيوف .

ولم يكن حاله في لباسه بأقل مما سبق، فقد شهد له أصحابه ـ رضي الله عنهم ـ بزهده وعدم تكلُّفه في لباسه، وهو القادر على أن يتَّخذ من الثياب أغلاها، يقول أحد الصحابة واصفاً لباسه : " أتيت رسول الله ـ ﷺ ـ أُكلِّمه في شيء فإذا هو قاعد وعليه إزار قطن غليظ ".

ودخل أبو بردة ـ رضي الله عنه ـ إلى عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، فأخرجت كساءً ملبدًا وإزارًا غليظًا، ثم قالت: " قُبض رسول الله ـ ﷺ ـ في هذين الثوبين "، وعن أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ قال: " كنت أمشي مع رسول الله ـ ﷺ ـ وعليه رداء نجراني غليظ الحاشية " .

ولم يترك ـ ﷺ ـ عند موته درهمًا، ولا دينارًا، ولا عبدًا، ولا أمة، ولا شيئًا، إلا بغلته البيضاء، وسلاحه، وأرضًا جعلها صدقة، قالت عائشة رضي الله عنها :" توفي رسول الله ـ ﷺ ـ وما في رفِّي من شيء يأكله ذو كبد، إلا شطر شعير "، ومات ـ ﷺ ـ ودرعه مرهونة عند يهودي مقابل شيءٍ من الشعير .

عَدلُهُ صلى الله عليه وآله وسلم

لقد كان العدل ملازمًا للرسول ـ ﷺ ـ في حِلِّهِ وترحاله، عدلٌ في تعامله مع ربه جل وعلا، وعدل في تعامله مع نفسه، وعدل في تعامله مع أزواجه، وعدل في تعامله مع الآخرين، من قريب أو بعيد، حتى العدو المكابر، له نصيب من عدله ﷺ.

فمن مواقف عدله أنه لَكَزَ أُسيدَ بن حضير ـ رضي الله عنه ـ في خاصرته بعود، فقال أُسيد: " أوجعتني، فدعني اقتص منك " فقال : ((**اقتص**)) قال أسيد: " إن عليك قميصًا، وليس علي قميص " فرفع النبي ـ ﷺ ـ عن قميصه، فاحتضنه أسيد وجعل يقبل ما بين الخاصرة والضلع، وقال: " إنما أردت هذا يا رسول الله ".

وكان ـ ﷺ ـ لا يرضى تعطيل حدود الله التي شرعها ـ سبحانه وتعالى ـ لإقامة العدل بين الناس، ولو كان الجاني من أقربائه وأحبابه، فهو القائل : ((**أيها الناس: إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وأيـمُ الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقَطَعْتُ يدها**)) .

هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أكله وشربه

كان من هديه ـ ﷺ ـ غسل اليدين قبل الطعام وبعده، أما جلوسه ﷺ، فقد كان يجثو على ركبتيه عند الأكل، وأحيانًا أخرى يَنصِبُ رجله اليمنى ويجلس على اليسرى، وكان لا يأكل متكئًا.

وكان من هديه ـ ﷺ ـ أنه يسمي الله – تعالى – في أول طعامه، ويحمده في آخره، ومن هديه ـ ﷺ ـ الأكلُ باليمين، وأن يأكل مما يليه، فقد ثبت عنه قوله: ((**سَمِّ الله وكُلْ بيمينك وكُلْ مما يليك**)) متفق عليه.

وكان من هديه ـ ﷺ ـ أنه يأكل بثلاثة أصابع، وكان يلعقها إذا فرغ من طعامه، أما عن هديه ـ ﷺ ـ في شرابه، فقد كان يشربُ الماء على ثلاث دفعات، فقد يَقسم شرابه إلى ثلاثة أجزاء، يتنفس بينها، مبعدًا الإناء عن فِيْهِ، وعن نَفَسِهِ، وكان ينهى عن التنفس في الإناء بقوله: ((**إذا شرب أحدكم فلا يتنفس في الإناء**)) رواه البخاري.

ومن كمال هديه ـ ﷺ ـ أنه ما عاب طعامًا قطُّ، إن اشتهاه أكله وإن كرهه تركه. ومن هديه أنه كان يدعو لصاحب الطعام فيقول: ((**أفطر عندكم الصائمون وأكل طعامكم الأبرار وصلَّت عليكم الملائكة**)) رواه أبو داود.

هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم

كان من هدي النبي ـ ﷺ ـ النوم على وضوء: ففي الحديث المتفق عليه أنه ـ ﷺ ـ قال للبراء بن عازب رضي الله عنه : ((**إذا أتيت مضجعك، فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن**... الحديث)) متفق عليه.

ومن هديه أيضًا التكبير والتسبيح عند المنام: فعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال حين طلبت إليه فاطمةُ ـ رضي الله عنها ـ خادمًا: ((**ألا أَدُلُّكُما على ما هو خير لكما من خادم ؟ إذا أَويتما إلى فِراشِكُما، أو أخذتما مضاجعكما، فكبرا أربعًا وثلاثين، وسبحا ثلاثًا وثلاثين، واحمدا ثلاثًا وثلاثين. فهذا خير لكما من خادم**)) متفق عليه .

وكان من هديه ـ ﷺ ـ أن يقرأ سورة الإخلاص، والمعوذتين قبل النوم: فعن عائشة رضي الله عنها ، أن النبي ـ ﷺ ـ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة جمع كفيه ثم نفث فيهما، فقرأ فيهما: ﴿ قُل هُوَ اللهُ أحَد ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ الفَلَق ﴾ و ﴿ قُلْ أَعُوْذُ بِرَبِّ النَّاس ﴾، ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده، يبدأ بهما على رأسه ووجهه، وما أقبل من جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات. رواه البخاري.

هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الوضوء

من الهدي النبوي عند الوضوء، المضمضة والاستنشاق من غرفة واحدة: فعن عبدالله بن زيد رضي الله عنه، أنَّ رسول الله ﷺ: (تمضمض، واستنشق من كف واحدة) رواه مسلم.

ومن هديه ـ ﷺ ـ الوضوء قبل الغُسل : فعن عائشة رضي الله عنها، أنَّ النبي ﷺ : (كان إذا اغتسل من الجنابة، بدأ فغسل يديه، ثم توضأ كما يتوضأ للصلاة، ثم يُدخل أصابعه في الماء، فيخلل بها أصول الشعر، ثم يَصُب على رأسه ثلاث غُرف بيديه، ثم يُفيض الماء على جلده كله) رواه البخاري.

ومن هديه التشهد بعد الوضوء: فعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ: ((**ما منكم من أحد يتوضأ فيُسبغُ الوضوء ثم يقول : أشهد أنَّ لا إله إلا الله، وأنَّ محمدًا عبده ورسوله، إلاَّ فُتحت له أبواب الجنة الثمانية، يدخل من أيها شاء**)) رواه مسلم.

وكان من هديه ـ ﷺ ـ الاقتصاد في الماء عند الوضوء: فعن أنس ـ رضي الله عنه ـ قال: (كان النبي ـ ﷺ ـ يَغتسلُ بالصَّاعِ إلى خَمسة أمدادٍ، ويتوضأ بالمُد)) متفق عليه.

هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة (١)

إن مما حثنا عليه نبينا الكريم ـ ﷺ ـ التبكير إلى الصلاة : فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : ((... لو يعلمون ما في التهجير [أي : التبكير] لاستبقوا إليه ... الحديث)) متفق عليه

ومن السنة الذهابُ إلى المسجدِ ماشيًا: فعن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال: ((**ألا أدُلُكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويَرفعُ به الدرجات**)) قالوا: بلى يا رسول الله. قال: ((**إسباغُ الوضوءِ على المكارهِ، وكثرةُ الخُطا إلى المساجد، وانتظارُ الصَّلاة بعدَ الصلاة، فذلكم الرباط**)) رواه مسلم.

كما أن من السنة إتيان الصلاة بسكينة ووقار: فعن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ((**إذا أقيمت الصلاة فلا تأتوها تسعون، وأتوها تمشون، وعليكم السكينة، فما أدركتم فصلوا، وما فاتكم فأتموا**)) متفق عليه.

هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة (٢)

من السنن النبوية في الصلاة، والتي يجهلها الكثير من المصلين، الإقعاء بين السجدتين: فعن أبي الزبير أنه سمع طاووسًا يقول: قلنا لابن عباس ـ رضي الله عنه ـ في الإقعاء على القدمين، فقال : (هي السُّنة) فقلنا له: إنا لنراه جفاء بالرَّجُل، فقال ابن عباس: (بل هي سُنة نبيك ﷺ) رواه مسلم.

والإقعاء هو: نصب القدمين والجلوس على العقبين، ويكون ذلك حين الجلوس بين السجدتين.

ومن السنن : التورك في التشهد الثاني: عن أبي حميد الساعدي ـ رضي الله عنه ـ قال: ((كان رسول الله ـ ﷺ ـ إذا جلس في الركعة الآخرة، قدم رجله اليسرى، ونصب الأخرى، وقعد على مقعدته)) رواه البخاري .

ومن السنن : الإكثار من الدعاء قبل التسليم: عن عبدالله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: (كنا إذا كنا مع النبي ﷺ) إلى أن قال: (ثم ليتخير من الدعاء أعجبه إليه فيدعو) رواه البخاري.

الهدي النبوي في السنن الراتبة

حث النبي ـ ﷺ ـ على أداء السنن الرواتب، ورتب على ذلك الأجر العظيم، فعن أم حبيبة رضي الله عنها ، أنها سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول: ((**ما من عبد مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعًا غير الفريضة، إلا بنى الله له بيتًا في الجنة**)) رواه مسلم.

والسنن الرواتب عددها اثنتا عشرة ركعة، في اليوم والليلة: أربع ركعات قبل الظهر، وركعتان بعدها، وركعتان بعد المغرب، وركعتان بعد العشاء، وركعتان قبل الفجر.

ورغب ـ ﷺ ـ في أداء صلاة النافلة في البيت : فعن جابر ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : ((**إذا قضى أحدُكم الصلاة في مسجده، فليجعل لبيته نصيبًا من صلاته، فإن الله جاعل في بيته من صلاته خيرًا**)) رواه مسلم .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : (كان النبي ﷺ : يُصلي في بيتي قبل الظهر أربعًا، ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيصلي ركعتين، وكان يصلي بالناس المغرب، ثم يدخل فيصلي ركعتين، ويصلي بالناس العشاء، ويدخل بيتي ويصلي ركعتين) رواه مسلم.

نوافل أكد عليها النبي ﷺ

جاء في صحيح مسلم، عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ـ ﷺ ـ أنه قال: ((**يُصْبِحُ على كل سُلَامَى** (أي: مِفْصَل) **من أحدكم صدقة، فكلُ تسبيحةٍ صدقة، وكل تحميدة صدقة، وكل تهليلة صدقة، وكل تكبيرة صدقة، وأمر بالمعروف صدقة، ونهي عن المنكر صدقة، ويجزىء من ذلك ركعتان يركعهما من الضحى**)) رواه مسلم.

فصلاة الضحى سنة نبوية عظيمة يحسن بالمسلم المحافظة عليها، وهي صلاة الأوابين، وأفضل وقتها حين ارتفاع النهار، واشتداد حرارة الشمس، ويخرج وقتها بقيام قائم الظهيرة، وأقلها ركعتان، ولا حدَّ لأكثرها.

كما أن من هديه عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم المحافظة على صلاة الوتر: فعن ابن عمر رضي الله عنهما، أنَّ النبي ـ ﷺ ـ قال: ((**اجعلوا آخر صلاتكم بالليل وترًا**)) متفق عليه.

وكان من هديه ـ ﷺ ـ قيام الليل والحثُ عليه : عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ـ ﷺ ـ سُئل : أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة، فقال: ((**أفضل الصلاة بعد الصلاة المكتوبة، الصلاة في جوف الليل**)) رواه مسلم.

قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (١)

فيما يأتي مقتطفات من أقوال بعض الفلاسفة والمستشرقين الغربيين في حقِّ النبي محمد ﷺ، تبين اعترافهم بعظمة هذا النبي الكريم، وبنبوته، وصفاته الحميدة، وحقيقة ما جاء به، بعيدًا عن التعصب، ونشر الأباطيل التي يروجها بعض أعداء الإسلام:

يقول الإنجليزي برنارد شو في كتابه: (محمد) الذي أحرقته السلطة البريطانية: " إن العالم أحوج ما يكون إلى رجلٍ في تفكير محمد، هذا النبي الذي وضع دينه دائمًا موضع الاحترام والإجلال ؛ فإنه أقدر الأديان على هضم جميع المدنيات، خالدًا خلود الأبد، وإني أرى كثيرًا من بني قومي قد دخلوا هذا الدين على بينة، وسيجد هذا الدين مجاله الفسيح في قارة أوروبا " .

ويقول: " إنَّ رجال الدين في القرون الوسطى، وبسبب الجهل أو التعصُّب، قد رسموا لدين محمدٍ صورةً قاتمة، لقد كانوا يعدونه عدوًّا للمسيحية، لكنَّني اطَّلعت على أمر هذا الرجل، فوجدته أعجوبة خارقة، وتوصلت إلى أنه لم يكن عدوًّا للمسيحية، بل يجب أنْ يُسمى منقذ البشرية، وفي رأيي أنه لو تولى أمر العالم اليوم، لوفِّق في حل مشكلاتنا بما يؤمن السلام والسعادة التي يرنو البشر إليها".

قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢)

يقول الفيلسوف الإنجليزي ثُومَاسْ كَارْلِيل ـ الحائز على جائزة نوبل ـ في كتابه (الأبطال) : " لقد أصبح من أكبر العار على أي فرد في هذا العصر، أن يصغي إلى ما يقال من أن دين الإسلام كذب، وأن محمدًا خدَّاع مزوِّر.

إنه لابد لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هذه الأقوال السخيفة المخجلة ؛ فإن الرسالة التي أدَّاها ذلك الرسول، ما زالت السراج المنير مدة اثني عشر قرنًا، لنحو مئتي مليون من الناس، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التي عاش بها ومات عليها هذه الملايين الفائقة الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟ ".

ويقول الفيلسوف الهندوكي راما كرشنة راو : " حينما ظهر محمد، لم تكن الجزيرة العربية شيئًا مذكورًا، ومن هذه الصحراء التي لم تكن شيئًا مذكورًا، استطاع محمد بروحه العظيمة، أن ينشئ منها عالمًا جديدًا، وحياة جديدة، وثقافة جديدة، وحضارة جديدة، ومملكة جديدة امتدت من مراكش إلى شبه القارة الهندية، واستطاع أن يؤثر في فكر وحياة ثلاث قارات هي: آسيا، وإفريقيا، وأوروبا ".

قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٣)

يقول المستشرق الكندي زويمر: " إن محمدًا كان ولا شك، من أعظم القادة الدينيين، ويصدق عليه القول : إنه كان مصلحًا قديرًا، وبليغًا فصيحًا، وجريئًا مغوارًا، ومفكرًا عظيمًا، ولا يجوز أن ننسب إليه ما ينافي هذه الصفات، وهذا قرآنه الذي جاء به، وسيرته يشهدان بصحة هذا الادعاء ".

ويقول السير وليام موير الانجليزي: " إن محمدًا ـ نبي المسلمين ـ لُقب بالأمين من صغره بإجماع أهل بلده ؛ لشرف أخلاقه ؛ وحسن سلوكه، ومهما يكن هناك من أمر، فإن محمدًا أسمى من أن ينتهي إليه الواصف، ولا يعرف قدره مَنْ جَهِلَه، والخبير به من أمعن النظر في تاريخه المجيد، ذلك التاريخ الذي ترك محمدًا في طليعة الرسل ومفكري العالم ".

ويقول: " لقد امتاز محمد بوضوح كلامه، ويسر دينه، وقد أتم من الأعمال ما يدهش العقول، ولم يَعهد التاريخ مصلحًا أيقظ النفوس، وأحيا الأخلاق، ورفع شأن الفضيلة في زمن قصير كما فعل نبي الإسلام محمد ".

ويقول الروائي والفيلسوف الروسي الكبير تولستوي: " يكفي محمدًا فخرًا أنه خلَّص أمة ذليلة دموية من مخالب شياطين العادات الذميمة" .

ويقول النمساوي شبرك: " إنَّ البشرية لتفتخر بانتساب رجل كمحمد إليها ؛ إذ إنه برغم أُمِّيته ؛ استطاع قبل بضعة عشر قرنًا أنْ يأتي بتشريع، سنكونُ نحنُ الأوروبيين أسعد ما نكون، إذا توصلنا إلى قمته ".

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

المصادر

١- صحيح البخاري

٢- صحيح مسلم

٣- سنن أبي داود

٤- مسند الإمام أحمد

٥- الروض الآنف

٦- السيرة النبوية ، ابن هشام

٧- السيرة النبوية الصحيحة ، أكرم ضياء العمري

٨- هذا الحبيب يا محب ، أبو بكر الجزائري

٩- الرحيق المختوم ، المباركفوري

١٠- معركة عقرباء – حديقة الموت ، شريف عبدالعزيز

١١- دلائل النبوية ، أسامة سليمان

١٢- وداع الرسول لأمته دروس ، وصايا، وعبر وعظات ، سعيد بن علي القحطاني

١٣- تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالفين المحاربين ، د. محمد إبراهيم الحمد

١٤- أحاديث الحفظ ، الجامعة الإسلامية بالمدينة

١٥- فوائد من حديث الأعرابي الذي بال في المسجد ، د. يوسف بن أحمد القاسم

١٦- معين الشمائل المحمدية ، صالح أحمد الشامي

١٧- موقع الشبكة الإسلامية

١٨- المختار الإسلامي

فهرس الموضوعات

مقدمة	٤
العرب قبل البعثة	٧
مكانة قريش	٨
ابن الذبيحين	٩
ولادة النبي ﷺ	١٠
النسب الشريف	١١
قصة الفيل	١٢
حادثة شق الصدر	١٣
وفاةُ آمنة والدةِ النبيِّ ﷺ	١٤
حِلفُ الفُضول	١٥
الزواج من خديجة رضي الله عنها	١٦
بناء الكعبة	١٧
النُّبوة	١٨
بَدءِ الدَّعْوَة	١٩
كيفية الوحي	٢٠
الدعوة السرية	٢١
المشركون والصَّد عن دين الله	٢٢
إسلام الجن	٢٣
إسلام عمرو بن عَبسة السلمي	٢٤
أعداءُ الدعوة	٢٥
الدعوة الجهرية	٢٦
أثر الجهر بالدعوة	٢٧
قريش تهدد أبا طالب	٢٨

قريش تحاول إغراء النبي ﷺ	٢٩
الهجرة إلى الحبشة	٣٠
أبو بكر والهجرة إلى الحبشة	٣١
الهجرة الثانية إلى الحبشة	٣٢
إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٣٣
إسلام الطفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه	٣٤
حِصارُ المسلمين في شعب أبي طالب	٣٥
عام الحزن	٣٦
المشركون ومحاربة الدعوة ١	٣٧
المشركون ومحاربة الدعوة ٢	٣٨
المشركون ومحاربة الدعوة ٣	٣٩
انشقاق القمر	٤٠
الرسول ـ ﷺ ـ في الطائف	٤١
الإسراء والمعراج	٤٢
بيعةُ العَقَبة	٤٣
الهجرة إلى المدينة	٤٤
قريش تتآمر على قتل النبي ﷺ	٤٥
الطريق إلى المدينة	٤٦
سراقة بن مالك يلاحق النبي ﷺ	٤٧
إسلام سيدا الأوس رضي الله عنهما	٤٨
هجرة عمر بن الخطاب رضي الله عنه	٤٩
من صور التضحية	٥٠
هِجرة ضَمُرَة بن جُنْدُب رضي الله عنه	٥١
النبي صلى الله عليه وآله وسلم في المدينة	٥٢
بناء مسجد الرسول ﷺ	٥٣
المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار	٥٤

أهلُ الصُفَّة	٥٥
تحويل القبلة	٥٦
يهود المدينة	٥٧
إسلام حَبْرُ اليهود	٥٨
قريش تهدد المسلمين في المدينة	٥٩
قافلة قريش	٦٠
معركة بدر الكبرى	٦١
من مواقف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في بدر	٦٢
دروس وعبر من غزوة بدر ١	٦٣
دروس وعبر من غزوة بدر ٢	٦٤
مصرع أبي جهل، فرعون هذه الأمة	٦٥
أُسَارى بدر	٦٦
مؤامرة لقتل النبي ﷺ	٦٧
عُمير بن وهب يُعلن إسلامه	٦٨
إجلاء بني قينقاع من المدينة	٦٩
بين بدر وأحد	٧٠
الخروج إلى أحد	٧١
الطريق إلى أحد	٧٢
غزوة أحد	٧٣
ثبات النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أحد	٧٤
مقتل حمزة بن عبدالمطلب رضي الله عنه	٧٥
شهداء أحد	٧٦
فوائد من غزوة أحد	٧٧
مواقف من غزوة أحد	٧٨
من ميدان أُحد	٧٩
في أعقاب أحد	٨٠

رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه	٨١
يوم الرجيع	٨٢
بئر معونة	٨٣
غزو بني النضير	٨٤
غزوةُ المُرَيْسيْع	٨٥
من مواقف المنافقين	٨٦
حديثُ الإفك	٨٧
غزوة الخندق	٨٨
حفر الخندق	٨٩
معجزات في أثناء حفر الخندق	٩٠
يهود قريظة ينقضون عهدهم	٩١
نُعَيم بن مسعود يُخَذِّل جيوش الأحزاب	٩٢
حُذيفة بن اليمان في معسكر الأحزاب	٩٣
غزوة بني قريظة	٩٤
عُمرة الحديبية	٩٥
قريش تمنع المسلمين من العمرة	٩٦
مفاوضات الحديبية	٩٧
بيعةُ الرُضوان	٩٨
صُلحُ الحُديبية	٩٩
بنود صلح الحديبية	١٠٠
أبو جندل يعود للمشركين	١٠١
مكاسب المسلمين من صلح الحديبية	١٠٢
فَضلُ أهل بيعة الرضوان	١٠٣
العودة من الحديبية	١٠٤
أبو بصير	١٠٥
مكاتبة الملوك والأمراء	١٠٦

حديث أبي سفيان	١٠٧
فتح خيبر	١٠٨
مواقف من فتح خيبر	١٠٩
عودة مهاجري الحبشة	١١٠
في طريق العودة من خيبر	١١١
غزوة ذاتِ الرِّقَاع	١١٢
من صور التضحية	١١٣
أعرابي يحاول قتل النبي ﷺ	١١٤
عمرة القضاء	١١٥
قِصَّةُ عَمرو بن العاص مع النجاشي	١١٦
إسلام خالد، وعمرو، وعثمان	١١٧
الطريق إلى مؤتة	١١٨
معركة مؤتة	١١٩
غزوة مؤتة، دروس وعبر	١٢٠
سرية ذات السلاسل	١٢١
قريش تنقض العهد	١٢٢
قصة حاطب بن أبي بلتعة	١٢٣
جيش الفتح ينطلق إلى مكة	١٢٤
فتح مكة	١٢٥
فتح مكة دروس وعبر	١٢٦
هوازن تستعد لغزو المسلمين	١٢٧
غزوة حنين	١٢٨
ثبات الرسول ـ ﷺ ـ يوم حنين	١٢٩
حصار الطائف	١٣٠
توزيع غنائم حنين	١٣١
هدمُ أصنام المشركين	١٣٢

غزوة تبوك	١٣٣
تجهيز جيش العسرة	١٣٤
مواقف في أثناء الاستعداد لغزوة تبوك	١٣٥
انطلاق جيش العسرة	١٣٦
مواقف إيمانية	١٣٧
من معجزات النبي ـ ﷺ ـ في غزوة تبوك	١٣٨
في تبوك	١٣٩
خبر الثلاثة	١٤٠
مسجد الضرار	١٤١
عام الوفود	١٤٢
وفد بني سعد بن بكر	١٤٣
وفد بني عامر	١٤٤
حجُّ أبي بكر الصديق	١٤٥
عداوة عبدالله بن سلول للإسلام	١٤٦
وفاة رأس النفاق عبدالله بن أُبَي	١٤٧
حَجَّةُ الوداع	١٤٨
كيف حجَّ رسولُ الله ﷺ ؟	١٤٩
بعثُ أُسامة بن زيد إلى البلقاء	١٥٠
مسيلمة الكذاب	١٥١
بدء المرض برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٢
اشتداد المرض على خير الخلق صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٣
وفاة سيد الخلق صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٤
كيف تلقى الناس خبر وفاة رسولهم صلى الله عليه وآله وسلم ؟	١٥٥
من دلائل النبوة	١٥٦
صِفَاتُ النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ الخَلْقية	١٥٧
الحكمةُ من أمِّيَّةِ النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٨

حقوق النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٥٩
رحمةُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بأمته	١٦٠
مظاهر حب النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٦١
حبُّ الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٦٢
حبُّ الصحابة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم (٢)	١٦٣
تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع اليهود	١٦٤
تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع النصارى	١٦٥
تعامُل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع المنافقين	١٦٦
تعامل النبي ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع المحاربين	١٦٧
إنما المؤمنون إخوة	١٦٨
إنما المؤمنون إخوة (٢)	١٦٩
صِفاتُ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٠
مِن أخلاق الرسول صلى الله عليه وآله وسلم	١٧١
تعليم الرسول ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لأصحابه	١٧٢
النبي المعلم صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٣
من معجزات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ١	١٧٤
من معجزات الرسول صلى الله عليه وآله وسلم ٢	١٧٥
مِزاحُهُ صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٦
تعامله ـ صلى الله عليه وآله وسلم ـ مع الصغار	١٧٧
معاملته لأهله صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٨
رحمته صلى الله عليه وآله وسلم	١٧٩
صبره صلى الله عليه وآله وسلم	١٨٠
صبره صلى الله عليه وآله وسلم (٢)	١٨١
صبره صلى الله عليه وآله وسلم (٣)	١٨٢
عبادته صلى الله عليه وآله وسلم	١٨٣
زُهْدُهُ صلى الله عليه وآله وسلم	١٨٤

طعامه ولباسه صلى الله عليه وآله وسلم	١٨٥
عَدلُهُ صلى الله عليه وآله وسلم	١٨٦
هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أكله وشربه	١٨٧
هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم عند النوم	١٨٨
هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الوضوء	١٨٩
هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة	١٩٠
هدي النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الصلاة (٢)	١٩١
الهدي النبوي في السنن الراتبة	١٩٢
نوافل أكد عليها النبي صلى الله عليه وآله وسلم	١٩٣
قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم	١٩٤
قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٢)	١٩٥
قالوا عن محمد صلى الله عليه وآله وسلم (٣)	١٩٦
المصادر	١٩٧
الفهرس	